شرلوك هولمز

الكنز المفقود

رواية بوليسية يرويها الدكتور
واطسون زميل شرلوك هولمز

تأليف

الروائى الأشهر

كونان دويل

دار الهلال

مؤلف الرواية

كان السير آرثر كونان دويل طبيبا قبل أن يصبح كاتبا ويتفرغ لتأليف الروايات البوليسية . ولعل أكثر الناس تأثيرا فى حياته هو الدكتور « جوزيف بل » أستاذه الذى تلقى عليه بعض فروع الطب وهو طالب ، والواقع أن هذا الاستاذ هو الذى حفزه فيما بعد الى ابتكار شخصية شرلوك هولمز ، واتباع طريقة الاستنتاج والتحليل التى امتاز بها ، وهو اذ ابتكر هذه الشخصية الروائية قد جعلها على طراز أستاذه هذا شكلا وموضوعا . فمن حيث الشكل كان الدكتور « بل » طويل القامة نحيل الجسم له عينان كعينى الصقر . ومن حيث الموضوع كان دقيق الملاحظة للدرجة القصوى

وقد كتب عنه كونان دويل مقالا فى مجلة « ستراند » أورد فيها مثلين على قوة ملاحظته التى كان يطبقها على المرضى أمام طلبته . فأما المثل الاول فيذكر كونان دويل أنه قال لمريض : « انى أرى أنك مدمن السكر ، فأنت تحمل زجاجة خمر فى جيب سترتك الداخلى » واتضح أن الرجل كان حقا من مدمنى المسكرات . وأما المثل الثانى ، فيقول كونان دويل فى ذلك المقال أن أستاذه نظر الى مريض حين دخل عنده فقال له توا : « انى أرى أنك اسكاف » . ثم التفت الى طلبته وجعل يشرح لهم كيف عرف لأول وهلة صناعة ذلك الرجل ، فقد لحظ أن موضع الركبة من بنطلونه قد بلى ، وذلك حيث يضع الاسكاف عادة الحجر الذى يشتغل عليه

ثم يقول كونان دويل : « لقد ترك هذا فى نفسى أثرا كبيرا . ولم يغب الدكتور « بل » قط عن ذاكرتى بعد ذلك ، بل كنت دائما أتمثله بعينيه الحادتين النفاذتين ، وأنفه الذى يشبه منقار النسر ، وملامحه التى تلفت الأنظار . وقد كان يجلس أمامنا فى كرسيه ضاما أصابعه

مؤلف الرواية

كان السير آرثر كونان دويل طبيبا قبل أن يصبح كاتبا ويتفرغ لتأليف الروايات البوليسية . ولعل أكثر الناس تأثيرا فى حياته هو الدكتور « جوزيف بل » أستاذه الذى تلقى عليه بعض فروع الطب وهو طالب ، والواقع أن هذا الاستاذ هو الذى حفزه فيما بعد الى ابتكار شخصية شرلوك هولمز ، واتباع طريقة الاستنتاج والتحليل التى امتاز بها ، وهو اذ ابتكر هذه الشخصية الروائية قد جعلها على طراز أستاذه هذا شكلا وموضوعا . فمن حيث الشكل كان الدكتور « بل » طويل القامة نحيل الجسم له عينان كعينى الصقر . ومن حيث الموضوع كان دقيق الملاحظة للدرجة القصوى

وقد كتب عنه كونان دويل مقالا فى مجلة « ستراند » أورد فيها مثلين على قوة ملاحظته التى كان يطبقها على المرضى امام طلبته . فأما المثل الاول فيذكر كونان دويل أنه قال لمريض : « انى ارى انك مدمن السكر ، فأنت تحمل زجاجة خمر فى جيب سترتك الداخلى » واتضح أن الرجل كان حقا من مدمنى المسكرات . وأما المثل الثانى ، فيقول كونان دويل فى ذلك المقال أن أستاذه نظر الى مريض حين دخل عنده فقال له توا : « انى ارى انك اسكاف » . ثم التفت الى طلبته وجعل يشرح لهم كيف عرف لأول وهلة صناعة ذلك الرجل ، فقد لحظ أن موضع الركبة من بنطلونه قد بلى ، وذلك حيث يضع الاسكاف عادة الحجر الذى يشتغل عليه

ثم يقول كونان دويل : « لقد ترك هذا فى نفسى أثرا كبيرا . ولم يغب الدكتور « بل » قط عن ذاكرتى بعد ذلك ، بل كنت دائما أتمثله بعينيه الحادتين النفاذتين ، وأنفه الذى يشبه منقار النسر ، وملامحه التى تلفت الأنظار . وقد كان يجلس أمامنا فى كرسيه ضاما أصابع

يده وكان حاذقا فى استعمالها . وكان شفيقا بطلابه يبذل قصارى جهده لتعليمهم ، فكان لهم نعم الصديق حتى اذا تخرجت وصرت طبيبا وسافرت الى افريقا ، كانت شخصيته البارزة وطريقته فى الملاحظة والتحليل تملأ خاطرى ، دون أن اتصور وقتئذ أن ذلك سوف يغرينى بأن اترك مهنة الطب الى كتابة الروايات البوليسية »

□

على أن السنوات التى قضاها الدكتور كونان دويل فى ممارسة الطب كان لها أيضا تأثير كبير فى حياته المستقبلة ، فقد عرفته بالكثير من حقائق الحياة ، وأمدته بالكثير من الذكريات والملاحظات ، واستطاع فى خلالها أن يطبق طريقة أستاذه القائمة على ملاحظة كثير من الناس والحوادث والأحوال . وكما ابتكر شخصية شرلوك هولمز ، استعار هو لنفسه شخصية الدكتور جون ه . وطسن ليروى حوادث هولمز فى مذكراته كما تروى فى الصفحات التالية

وقد كتب الدكتور « جوزيف بل » بعد ذلك عن تلميذه الدكتور دويل فى مجلة « ذى بوكمان » ، وقدم لمقاله بالحديث عن أهمية قوة الملاحظة فى الطب وفى الحياة ، ثم نقد روايات شرلوك هولمز وبين ميزاتها على الروايات البوليسية الاخرى التى لا تقوم على قاعدة الملاحظة والتحليل والاستنتاج ، وقد يعرف القارىء نهايتها من قراءة بدايتها ... أو يتوه فى حوادثها حتى اذا وصل الى آخرها يكون قد نسى أولها ! . وذلك على عكس روايات كونان دويل المتسلسلة الحوادث ، المتماسكة الفكرة ، القائمة على تفكير هادىء رصين ، قوامه العلم والمنطق



شخصيات الرواية

الدكتور واطسن Dr. Watson : طبيب سابق بالجيش ، جرح فى ساقه ، وصديق شرلوك هولمز وراوية مغامراته

شرلوك هولمز Sherlock Holmes : عبقرى اخترع طريقة الاستنتاج والملاحظة فى تحقيق الجنايات ، وبطل هذه المغامرة الكبرى

الآنسة مورستان Miss Morstan : ابنة ضابط سابق فى الجيش الهندى ، ربيت فى انجلترا بمعهد داخلى لوفاة أمها وهى صغيرة

ثاديوس شولتو Thaddeus Sholto : ابن ضابط قديم فى الجيش الهندى ، وهو شاب أصلع عصبى ، محب للترف والفنون ، طيب القلب

بارثلميو شولتو Bartholomew Sh. : الشقيق التوأم لثاديوس ، وهو يختلف عنه بحبه للمال ، وبخله ، وخشونة طباعه وطمعه

الميجور شولتو Major Sholto : والد التوأمين ، بخيل ، طماع ، فى حياته سر خطير يعيش بسببه فى رعب دائم

آثلنى جونس Athelny Jones : من قوة اسكتلنديارد ـ فخور بنفسه ، مغرور ، غبى ، عنيد

مسز بيرنستون Mrs. Burnstone : مشرفة الدار التى يقيم بها بارثلوميو شولتو ، سيدة عجوز مسالمة

جوناثان سمول Jonathan Small : رجل أعرج ، له ساق من الخشب ، جندى سابق فى الجيش الهندى ، وحكم عليه بالسجن المؤبد فى جريمة قتل ، ولكنه تمكن من الفرار

موردكاى سميث Mordacai Smith : صاحب زوارق نهرية ولنش بخارى سريع ، رجل سكير ، وبحار مغامر

الفصـل الأول

علم الاستنتاج

تناول شارلوك هولمز قارورته المعهودة من ركنها المخصص لها فوق رف المدفأة الرخامى . ثم تناول محقنة من الغلاف الأنيق الذى كان قطعة فاخرة من فن الحفر فى الخشب . ذلك الفن الذى حذقه أهل مراكش وكان لهم فيه باع طويل وطابع قائم برأسه

وبأنامل ناصعة البياض ظاهرة الطول عصبية الاختلاج حرر الابرة المرهفة فى مكانها وثبتها ثم أماط كم قميصه عن ذراعه الأيسر . واستقرت عيناه برهة قصيرة فى إمعان على ساعده ومعصمه اللذين انتشرت فوقهما آثار لاتحصى من وخز ذلك المحقن . وأخيراً غرس سن الابرة وأفرغ تحت الجلد ما فى المحقن بضغطة حاسمة . وغاص بعد ذلك فى مقعده المريح المكسو بالمخمل المزركش وهو يزفر زفرة استرواح طويلة

وكنت قد ظللت طيلة شهور كثيرة أشهد هذا المنظر ثلاث مرات فى كل يوم . بيد ان العادة لم تستطع أن توطد الألفة بين عقلى وبين ذلك العمل المتكرر . بل انى على العكس كنت أزداد فى كل يوم ضيقاً بهذا المشهد . وكان ضميرى يتمرد فى طوايا نفسى ويقرعنى لأنى لم أكن من الشجاعة بحيث أعترض وأحتج

وكم من مرة سجلت على نفسى عهداً أن أبرىء ذمتى من ذلك الوضوع . ولكن ماكان يتميز به صاحبى من قلة المبالاة والهدوء والثبات فى كل مايقدم عليه ، كان يجعله آخر انسان يمكن أن يجشم المرء نفسه الاجتراء عليه من قريب . وكانت قدراته العظيمة واستاذيته فى سلوكه وهيئته ، وما خبرته فيه من خلال ومزايا خارقة ، تجعلنى أتراجع كلما هممت بالاعتراض عليه أو تكديره

ومع هذا فلست أدرى أى شىء فى ذلك الأصيل طرأ علىّ . أهو كأس نبيذ بون الذى احتسيته مترعاً على مائدة الغداء . أم هى الاستثارة الاضافية التى أحدثها تصميمه التمهل فى هذه المرة . ومهما يكن من شىء فقد شعرت ان صبرى فرغ ، فسألته :

— أى شىء هو اليوم ؟ أمورفين هو أم كوكايين ؟

فرفع عينيه فى تراخ عن الكتاب الذى كان قد فتحه بين يديه وقال :

— بل كوكايين . بنسبة ٠/٧ ... محلول . أتحب أن تجربه ؟

فقلت له مغيظاً فى شىء من الحدة :

— كلا من فضلك . إن بنيانى لم يتغلب على آثار الحملة الأفغانية حتى الآن . فلا يسعنى أن أزيد على حالتى توتراً اضافياً

فأدرك مرامى وابتسم ثم قال :

— ربما كنت على صواب يا وطسن . وربما أيضاً كان تأثير الكوكايين من الوجهة البدنية سيئاً . بيد انه أصبح عادة عندى تنشط مخى . بحيث ان تأثيره الثانوى على الجسم يبدو قليل الأهمية

فازدادت حدتى وأنا أجيبه قائلا :

— ولكن تدبر الأمر ياشارلوك ! واحسب معى الثمن ! ان مخك قد يتنبه وينشط . ولكن بطريقة مرضية وبيلة يترتب عليها تغير متزايد فى الأنسجة السنجابية ربما نجمت عنه فى النهاية آفات دائمة . وأنت تعلم كذلك رد الفعل الوبيل الذى يجرى عليك . فما من شك ان هذه اللعبة لا تكاد تساوى ماينفق فى سبيلها من شموع تستهلك للاضاءة . فلماذا يارجل تخاطر فى سبيل لذة عابرة بفقدان قواك العظيمة ومواهبك التى أوتيتها ؟ وتذكر اننى لا أخاطبك الآن خطاب الصديق للصديق فحسب ، بل وأيضاً خطاب رجل الطب لرجل يعتبر نفسه مسئولا عن صحة بنيته الى حدما

فلم يظهر عليه مايدل على الامتياء . بل على العكس رأيت أطراف أنامله تتلاقى ثم مال فوق ذراعى مقعده شأن من طابت نفسه وهشت لشجون الأحاديث . ثم قال :

— ان عقلى يتمرد على الركود . أعطنى مشكلات . أعطنى عملا . أعطنى أعضل الألغاز وأغمض عمليات التحليل . تجدنى عندئذ فى معدنى الطبيعى . وفى هذه الحالة أستطيع أن أستغنى عن المثيرات الصناعية . أما روتين المعيشة الرتيب المألوف السمج فانى أنفر منه وأمقته . لأنى أتوق الى التوثب العقلى . وهذا هو السر الذى دفعنى أن أختار لنفسى مهنتى الخاصة بى وحدى . وبعبارة أدق أن أخلقها وأبتكرها ابتكاراً . لأننى كما تعلم الوحيد الذى يمارسها فى العالم

فقلت له وأنا أرفع حاجبى بشىء من الدهشة :

— أأنت المخبر السرى غير الرسمى الوحيد ؟

فأومأ برأسه مؤكداً ثم استطرد :

— أنا المخبر السرى غير الرسمى الاستشارى الوحيد فى العالم . لأنى آخر وأعلى محكمة استئنافية فى كل ما يتصل بكشف غوامض الجرائم . فحينما تفرغ حيلة جريجسون أولستراد أو آتلنى جونس — وذلك على فكرة ما يحدث لهم فى العادة باستمرار — يطرحون الموضوع أمامى . فأفحص الوقائع فحص الخبير . ثم أصدر قرار الأخصائى الأخير . وفى هذه الأحوال لا أطالب بنسبة الفوز إلى نفسى . ولا يظهر اسمى على صفحات الجرائد . فالعمل فى حد ذاته ، ولذة العثور على ميدان لمواهبى الفريدة هو أسمى ثواب أطمح إليه . وقد شهدت أنت بنفسك طرفاً من وسائلى ومنهجى فى العمل حينما عالجت قضية جيفرسون هوب

فنسيت حدتى عند ذكر تلك القضية وقلت بحماسة :

— أجل . ولم أذهل لشىء كما ذهلت عندئذ . بل إننى لفرط اعجابى بذلك المنهج سجلته فى كراسة صغيرة تحت عنوان « دراسة فى الجريمة » . وهو عنوان براق بعض الشىء

فهز شارلوك رأسه فى أسى وقال :

— لقد ألقيت عليها نظرة . وأنا بصراحة لا يسعنى أن أهنئك بها . ففن الاستنتاج فى كشف الجرائم ينبغى أن يكون علماً من العلوم المضبوطة . وينبغى أن يعالج بالتفكير الهادىء المجرد من العواطف . أما أنت فقد حاولت أن تشوبه بالخيال الروائى . فكانت نتيجة ذلك أشبه شىء بادخالك قصة غرام فى برهان النظرية الخامسة من نظريات اقليدس الهندسية

فاحتججت عليه مستنكراً بقولى .

— ولكن القضية كان من عناصرها الجانب العاطفى فعلا . ولم يكن فى وسعى أن أعبث بالوقائع

— بل ان بعض الوقائع يجب أن يضرب عنه صفحاً . بل على الأقل لا تعطى له كل تلك الأهمية . لأن العنصر الوحيد من عناصر تلك القضية الذى كان ينبغى أن يوجه إليه الاهتمام كله هو عنصر الاستدلال التحليلى للانتقال من النتائج إلى أسبابها . وهذا هو قوام المنهج الذى نجحت فى الوصول به إلى جلاء غوامض القضية

فضايقنى منه ذلك النقد القاسى لعمل تجشمته فى سبيل إدخال السرور على نفسه خاصة . واعترف أيضاً أننى استأت لأنانيته التى سولت له أن يطالب بأن تكون كل سطور كتابى وقفاً على أعماله الخاصة . والحقيقة أننى لاحظت أكثر من مرة خلال السنوات الطويلة التى عشت فيها معه بشارع بيكر أن شيئاً من الغرور يكمن وراء مظهر صاحبى الهادىء المنطقى

وعلى كل حال لم أشأ أن أعقب وجلست أدلك ساقى التى كانت قد أصيبت برصاصة منذ مدة وأنا فى بلاد الأفغان ولئن لم يمنعنى الجرح من المشى إلا أنه كان يؤلمنى كثيراً عند كل تغير من تغيرات الطقس . وبعد برهة قال هولمز وهو يحشو غليونه العتيق :

— لقد اتسع ميدانى فى المدة الأخيرة حتى عبر المانش الى القارة الأوربية . إذ استشارنى فى الأسبوع الماضى فرنسوا لى فيرار الذى أصبح كما قد تعلم فى مقدمة رجال الضبطية السرية فى فرنسا أخيراً . وهو يتمتع بكل مزايا العنصر الكلتى التى أهمها سرعة البديهة . ولكن ينقصه اتساع دائرة المعلومات الدقيقة العلمية التى لابد منها فى الدرجات العليا من هذا الفن . وكانت القضية التى استشارنى فيها تتصل بوصية . وكانت لا تخلو من بعض جوانب التشويق . وقد أفلحت فى هدايته للاتجاه الذى قاده الى الحل الصحيح . وهاك الخطاب الذى تلقيته منه هذا الصباح يشكرنى فيه ويعترف بقيمة معونتى

ثم قذف نحوى بالخطاب . فألقيت عليه نظرة . ووجدته طافحاً بعبارات الثناء العاطر التى تدل على الاعجاب الحماسى . فقلت له :

— انه يخاطبك خطاب التلميذ لأستاذه

— ربما كان يبالغ فى مدى مساعدتى له بعض الشىء . فهو فى الحقيقة يتمتع بمزايا لا يستهان بهـا . بل إنه على التحقيق حائز لصفتين من الصفات الثلاث الضرورية لتكوين المخبر السرى النموذجى

— وما هى هذه الصفات الثلاث ؟

— انها المعرفة الدقيقة المستفيضة . وقوة الملاحظة . وقوة الاستنتاج . فأما هو فلديه قوة الملاحظة وقوة الاستنتاج . وينقصه المزيد من المعرفة . وذلك نقص يمكن تلافيـه مع مرور الوقت . وهو فى الوقت الحـاضر معنى بترجمة مؤلفاتى الصغيرة الى اللغة الفرنسية

— مؤلفاتك الصغيرة ؟

فقهقه شرلوك هولمز وقال ضاحكا :

— ألم تكن تعلم بوجودها ؟ أجل أنا المسئول عن بضعة كتيبات كلها فى موضوعات فنية . فهذا مثلا كتاب عن طرق التميز بين رماد أنواع الطباق المختلفة . وفى هذا الكتاب أعدد مائة وأربعين نوعاً من طباق الغليون والسجائر والسيجار . مع رسوم ملونة توضح الفروق بين رمادها . وتلك مسألة مهمة تبرز فى معظم القضايا الجنائية وربما كانت خيطاً هاماً يؤدى الى كشف الغوامض كلها . وإن عين الخبير لتستطيع أن تجد من الفرق بين نوعين يختلطان على الشخص العادى من رماد السجائر ، مثل الذى تجده أنت من الفرق بين البطاطس والكرنب !

— ان لك موهبة خارقة فى تمييز الفروق الدقيقة

— ان الفروق الدقيقة هى دائماً أهم الفروق . وهناك كتاباً آخر عن اقتفاء الأثر كما يعرفه أعراب البادية . وكتاباً ثالثاً عن تأثير مهنة الشخص فى كف يده مع لوحات توضيحية ملونة لأيادى البحارة والنساجين وصاقلى الجواهر ومؤلفى الألحان

— هذه ولاشك أشياء مفيدة جداً . ولكنك ذكرت الآن قوة الملاحظة وقوة الاستنتاج على أنهما شيئان مختلفان . مع أن إحداهما تشمل الأخرى أو تفضى اليها بالضرورة

فاضطجع شارلوك هولمز فى مقعده وراح يرسل حلقات كثيفة من غليونه بعض الوقت . ثم أبعد الغليون عن فمه وقال بتؤدة :

— بل هما مختلفان جداً . فالملاحظة مثلا تدلنى على أنك ذهبت هـذا الصباح إلى مكتب البريد الذى فى شارع ويجمور . ولـكن الاستنتاج وحده هو الذى يدلنى على أنك كنت هناك لترسل برقية !

فحملقت ثم صرخت متعجباً :

— مضبوط ! أصبت فى المسألتين جميعاً ! ولكنى أعترف لك أننى لا أدرى كيف وصلت إلى النتيجتين . فقد ذهبت إلى هناك بناء على خاطرة مفاجئة ولم أبح بمضمونها لأى إنسان

فجعل شارلوك يضحك من دهشتى ثم قال :

— المسألة فى غاية البساطة . بل إنها من البداهة بحيث يبدو كل توضيح لها فضولا لا لزوم له . إلا أن التوضيح قد يعين على تعيين الحدود التى تفرق بين قوة الملاحظة وقوة الاستنتاج . فالملاحظة دلتنى على أن نعل حذائك فيه شىء من الطين المحمر . وأمام مكتب بريد شارع ويجمور مباشرة يقوم عمال التنظيم فى الوقت الحاضر برفع أحجار الرصف ، فانتثر شىء من التربة السفلية أمام مكتب البريد بحيث لا يمكن أن يتحاشى الداخلون المرور فوقه . والتربة هناك لها هذا اللون المحمر الذى لا يوجد فيما أعلم فى أى موضع آخر من المنطقة . إلى هنا والمسألة كلها تقوم على الملاحظة . أما الباقى فهو من عمل الاستنتاج

— تعنى البرقية . فكيف استنتجتها ؟

— لقد كنت جالساً أمامك طول الصباح فلم أرك تكتب خطاباً . وأعلم أيضاً أن فوق مكتبك دفتر طوابع بريد . فما الذى يجعلك تذهب إلى مكتب البريد اللهم إلا إن كنت تنوى إرسال برقية ؟ أستبعد جميع العناصر التى تنافى المعقول فيكون العنصر المتبقى هو الصواب

فأطرقت أفكر برهة ثم قلت :

— هذه هى الحقيقة فعلا . لقد بدت كما قلت غاية فى البساطة . ولـكن هل تجد من التبجح أن أعرض نظرياتك لامتحان أدق ؟

— بالعكس . فقد يمنعنى ذلك من تعاطى جرعة أخرى من الكوكايين . وسيكون من دواعى سرورى أن أنظر فى أى معضلة يخطر لك أن تضعها أمامى الآن

— لقد سمعتك تقول إنه من الصعب أن يستعمل شخص أداة استعمالا يومياً من غير أن يترك عليها أثره الشخصى بحيث يستطيع الملاحظ المدرب أن يقرأ هذا الطابع قراءة واضحة . ومعى الآن ساعة صارت إلى حوزتى أخيراً . فهل لك أن تتفضل فتدلى برأيك عن طباع وعادات مالكها السابق ؟

وقدمت اليه الساعة وأنا أغالب شعورى بالتحدى لأن هذا الاختبار كان يبدو لى معجزاً . وكنت أتوقع أن يكون ذلك درساً لهولمز يخفف من اعتزازه التقريرى بنفسه

ورأيته يزن الساعة فى يده ، ثم ينظر إلى الميناء نظرة مدققة ، ثم يفتح ظهرها ويفحص داخلها بعينه المجردة أولا ثم بعدسة قوية . ولم أتمكن من كتمان الابتسام عندما ظهرت على وجهه أمارات خيبة الأمل وهو يغلق غلاف الساعة ويعيدها إلىّ . ثم لم يلبث أن قال :

— لا تكاد توجد بها عناصر هادية . لأن الساعة مسحت أخيراً . فسلبنى هذا المسح أثمن أدلتى

— هذا صحيح . لقد مسحوها قبل أن يرسلوها إلىّ

ولكنى فى الو اتهمت صاحبى بينى وبين نفسى أنه تذرع بهذا العذر الأعرج كى يغطى فشله . فأى أدلة يمكن أن يتوقعها الانسان من ساعة لم تمسح ؟

وقطع علىّ أفكارى صوت شرلوك هولمز وقد رفع رأسه إلى السقف يجيل فيه نظرات حالمة خبا بريقها

— ومع هذا فان فحصى لم يكن عقيما تماماً وإن لم أخرج بكل ما كنت أنشده . فأنا مثلا أرجح أن هذه الساعة كانت فى حوزة أخيك الأكبر الذى كان قد ورثها عن والدك

— لا شك أنك عرفت ذلك من حرفى هـ . و . اللذين على ظهرها ؟

— فعلا . فحرف الواو يشير إلى اسمك . والتاريخ المحفور تحت الاسم يرجع الى نحو خمسين سنة مضت . إذن فقد صنعت هذه الساعة لواحد من أبناء الجيل الماضى . ولما كانت المجوهرات تنتقل عادة إلى الابن الأكبر الذى يحمل فى الغالب نفس اسم والده . ولما كان والدك كما أذكر مات منذ سنوات كثيرة . فلابد أنها إذن كانت فى حوزة أخيك الأكبر فى المدة التى انقضت من وفاة أبيك الى الآن

— كل هذا صحيح . هل من شىء آخر ؟

— نعم ، وأخوك الأكبر كان إنساناً مهملا غير دقيق . وقد ورث تركة طيبة ولـكنه أساء التصرف . فعاش فى فترات من الفقر تتخللها نوبات من الرخاء . وأخيراً أفرط فى شرب الخمر الى أن مات . وأخشى أن يكون هذا لشديد الأسف كل ما استطعت جمعه من معلومات !

فقفزت من مقعدى ورحت أعرج جيئة وذهاباً فى الحجرة بصبر نافد وقد امتلأ صدرى بالمرارة والسخط . ثم قلت بغضب :

— هذا لا يليق بك يا هولمز . وما كنت أظن بك أنك تنحدر الى هذا المستوى ، لقد تسقطت الأخبار عن تاريخ أخى المنكود ثم تأتى لتزعم لى أنك استنتجت معلوماتك بطريقتك الخرافية . ولا أظنك تتوقع منى أن أصدق ما تزعمه من أنك قرأت هذا كله فى هذه الساعة القديمة وهى ممسوحة ! إن هذا كان قسوة منك . بل إنه بصراحة شعوذة ودجل

فلم يثر شارلوك هولمز . بل قال بكل رقة :

— أرجو يا عزيزى الدكتور أن تتقبل اعتذارى كاملا . فقد نظرت الى الموضوع على أنه مشكلة عقلية مجردة . ونسيت إلى أى مدى يمكن أن يكون هذا الموضوع الشخصى مؤلماً لك . وأنا أؤكد لك مع ذلك أننى لم أكن أعلم من قبل مجرد أن لك أخاً إلى أن أعطيتنى هذه الساعة

— اذن كيف ـ بحق كل ما هو مدهش ـ استطعت أن تصل إلى هذه الحقائق ؟ فهى صحيحة على اطلاقها فى جميع التفاصيل

— هذا من توفيقات الحظ . لأننى لم أكن واثقاً بل كنت أرجح فحسب . ولم أكن أتوقع اصابة كبد الحقيقة بحذافيرها

— إذن لم يكن الأمر مجرد تخمين ؟

— كلا كلا . فأنا لا أخمن أبداً . فالتخمين عادة سيئة تهدم الموهبة المنطقية وما يبدو لك غريباً إنما سببه كونك لا تتبع خطواتى فى التفكير أولا تلاحظ الظواهر الكثيرة التى يمكن أن يتوقف عليها الكثير جداً من الاستنتاجات. فأنا مثلا بدأت الكلام بوصف أخيك أنه مهمل . وإذا أنت لاحظت الجزء الأسفل من مظروف الساعة لوجدته معطوباً فى موضعين. ومخدوشاً فى جميع المواضع . مما يدل على أن صاحب الساعة تعود أن يضع معها فى جيب صدار وأحد أشياء صلبة كالنقود الفضية والمفاتيح . ولا شك أنه لا حاجة بالانسان الى فطنة شديدة كى يستنتج أن الشخص الذى يعامل ساعة ثمينة قيمتها أكثر من خمسين جنيهاً ذهبياً مثل هذه المعاملة الخشنة لابد أن يكون إنساناً مهملا. وكذلك ليس من الصعوبة بمكان أن نستنتج أن الشخص الذى يرث شيئاً ثميناً كهذا لابد أن يرث معه تركة محترمة

فأومأت برأسى تأميناً على كلامه فاستطرد :

— ومن عادة أصحاب محلات الرهون فى انجلترا حين ترهن لديهم ساعة أن يحفروا رقم إذن الرهن بطرف دبوس فى الوجه الداخلى لمظروفها . حتى لا تضيع نمرة الرهن لو كتبت على ورقة مثلا . ولا يوجد أقل من أربعة أرقام ظهرت لعدستى بباطن مظروف هذه الساعة . فدلنى هذا على أن أخاك كثيراً ما مر بفترات ضنك وضيق . وبالتالى أن هذه الفترات كانت تتخللها نوبات رخاء . وإلا لما تمكن من استردادها من يد الراهنين أربع مرات

— هذا صحيح الى أبعد حد

— وأخيراً أطلب منك أن تنظر فى القرص الداخلى الذى به ثقب مفتاح الساعة . وسترى آلاف الخدوش حول ثقب المفتاح مما يدل على أن صاحبها كان يخطىء ويتعثر حين يضع المفتاح . وقل لى بربك أى رجل مفيق يمكن أن يحدث بمفتاح ساعته هذه الخدوش ؟ أما السكير المدمن فلا ترى ساعته إلا وفيها مثل هذه الآثار . لأن الساعة تملأ فى الليل قبل النوم . فيترك فيها أثر يده المرتعدة . فهل بقى بعد هذا لغز غامض فى جوانب المسألة ؟

— بل إنها تبدو واضحة كبلج الصبح . وإنى آسف لما رميتك به. وكان

ينبغى أن يكون عندى من الثقة بموهبتك الخارقة أكثر من ذلك . وأحب أن أسألك إن كانت لديك أبحاث فى الوقت الحاضر

— كلا . ولهذا أستعين بالكوكايين لأنى لا أستطيع أن أعيش من غير شاغل يشغل دماغى . لأى شىء غير التفكير يمكن أن أعيش؟ انظر من هذه النافذة وخبرنى أى جمال فى هذا العالم يحبب إلينا الحياة فيه ؟ ما قيمة المواهب ان لم نستطع استخدامها ؟

وفتحت فمى لأجيبه معترضاً . لولا أن مالكة البيت دخلت علينا وفى يدها بطاقة فوق طبق من الفضة قدمتها لصاحبى

— انها سيدة صغيرة السن تسأل عنك يا سيدى



الفصل الثانى

وقائع القضية

تناول شارلوك هولمز البطاقة ونظر فيها ملياً ثم قال :

— الآنسة مارى مورستان . لا أذكر أحداً بهذا الاسم . اطلبى من السيدة الشابة أن تصعد يامسز هدسون . كلا لاتنصرف يادكتور . بل أفضل أن تبقى

ودخلت الآنسة مورستان الحجرة بخطوة ثابتة وصدر مرتفع . وكانت شابة شقراء قصيرة القامة دقيقة الملامح ترتدى قفازاً فاخراً وثيابها تنم عن أتم ذوق . ومع هذا فكان لباسها من البساطة والخلو من الزخارف بحيث يدل على ان مواردها محدودة . وأما قبعتها فكانت عمامة من قماش ثوبها الشمشى اللون ولا تزينها إلا ريشة بيضاء صغيرة على أحد الجانبين

وعند ما دققت فيها النظر وجدت ملامحها غير متناسقة كل التناسق . واكتشفت ان لونها حائل بعض الشىء . بيد ان تعبير وجهها فى مجموعه ،كان عذباً محبباً الى النفس . كما ان عينيها الزرقاوين الكبيرتين كانتا على درجة كبيرة من الظرف والجاذبية والذكاء

وبوحى من خبرتى فى النساء التى تمتد الى أمم كثيرة والى ثلاث قارات بأكملها ، أستطيع أن أقول إننى لم أر فى حياتى كهذا الوجه وجهاً تستريح اليه النفس ويبشر بطبيعة حساسة مرهفة

والحقيقة انه لم يكن لى مناص من ملاحظة ذلك كله لأنها جلست فى المقعد المواجه لى الذى عينه لها شارلوك هولمز . فاستقرت فيه وشفتاها ترتعدان ويداها تختلج مما دلنا على اضطراب داخلى عميق

وبعد أن صمتت قليلا قالت لشارلوك هولمز :

— لقد أتيت اليك يامستر هولمز لأنك يوماً ما ساعدت مخدومتى مسز سيسل فورستر على الخروج من مأزق عائلى . وقد تركت رقتك وبراعتك فى نفسها أجمل الأثر

فقطب شارلوك هولمز جبينه متفكراً ثم قال :

— مسز سيسل فورستر ؟ أظننى قمت لها بخدمة هينة فيما مضى . ولكن قضيتها على كل حال كانت فيما أذكر يسيرة جداً لم أجد فيها مشقة

— انها لاترى هذا الرأى . ولكنك على كل حال لا تستطيع أن تصف قضيتى بما وصفت به قضيتها من السهولة . فأنا لا أكاد أتصور شيئاً أصعب منها ولا أشد استغلاقاً على الفهم . ولا أخال موقفى أعضل من موقفها ، وإن كنت لا أظن موقفاً آخر أعضل من موقفى

ففرك هولمز يديه وومضت عيناه . ثم مال الى الأمام فى مقعده وقد اكتسى وجهه بالاهتمام الخارق حتى كأنه الصقر . ثم قال بلهجة مهنية حاسمة :

— اعرضى وقائع قضيتك

فشعرت ان وضعى غير مناسب ، وقلت وأنا أنهض من مقعدى :

— لا شك انكما تأذنان لى فى الانسحاب

ولدهشتى الشديدة رفعت السيدة يدها التى يكسوها القفاز لتمنعنى من الانصراف وقالت بلهفة :

— إذا تفضل صديقك بالبقاء ربما أدى لى خدمة لاتقدر

فلم يسعنى إلا أن أهبط فى مقعدى . واستطردت هى تروى قصتها :

— الوقائع بايجاز كما يأتى . كان والدى ضابطاً فى إحدى فرق الجيش الهندى . وقد أرسلنى الى الوطن وأنا بعد طفلة صغيرة . وكانت والدتى قد ماتت وليس لى أقارب فى انجلترا . فوضعت فى معهد داخلى مريح بمدينة أدنبره . وظللت هناك الى أن بلغت السابعة عشرة من عمرى ، وفى سنة ١٨٧٨ حصل والدى الذى كان كبير ضباط فرقته على اجازة مقدارها اثنى عشر شهراً وعاد الى الوطن . وأرسل لى برقية من لندن يخبرنى بوصوله سالماً . ويأمرنى أن أحضر من أدنبره فوراً لأقابله فى فندق لانجهام فى لندن حيث نزل . وكانت رسالته فيما أذكر حافلة بالحنان والحب

وبعد أن مسحت عينيها بمنديل صغير ونحن صامتان استأنفت الحديث :

— ولما وصلت لندن ركبت عربة الى فندق لانجهام . فأخبرونى هناك ان الكابتن مورستان ينزل عندهم فعلا . ولكنه خرج فى الليلة السابقة ولم يعد . فلبثت طول النهار أنتظره فى الفندق على غير طائل . حتى أقبل المساء فنصحنى مدير الفندق أن أتصل بالبوليس . وفى اليوم التالى نشرت اعلاناً فى جميع الصحف . بيد ان الجهود والاستعلامات كلها لم تصل بنا الى نتيجة . ومنذ ذلك اليوم حتى يومنا هذا لم أسمع كلمة واحدة عن والدى المنكود . الذى جاء الى الوطن يملأ قلبه الأمل فى أن يجد شيئاً من الراحة والدعة فاذا به ...

ثم رفعت يدها الى حلقها لأن نحيبها قطع عليها عبارتها . وعندئذ فتح هولمز دفتر مذكراته وسألها :

— ما هو التاريخ من فضلك بالضبط ؟

— لقد اختفى فى اليوم الثالث من شهر ديسمبر سنة ١٨٧٨ : أى منذ نحو عشر سنوات

— وحقائبه ؟...

— بقيت فى الفندق فلم يكن فيها ما يهدينا الى شىء . فكل محتوياتها عبارة عن بعض الثياب ، وبعض الكتب ، وعدد كبير من الطرف جلبها من جزائر أندمان . لأنه كان من ضمن الضباط المشرفين على حراسة المساجين هناك . لأن هذه الجزائر هى السجن المؤبد فى الهند

— وهل كان له أصدقاء فى لندن ؟

— صديق واحد فيما أعلم . هو الميجور شولتو . الذى كان زميله فى الفرقة نفسها . وهى الفرقة ٣٤ مشاة بومباى . وقد تقاعد الميجور قبل ذلك التاريخ بمدة وأقام فى نوروود العليا . واتصلنا به طبعاً ، ولكنه لم يكن يدرى بمجرد وجود أخيه فى السلاح فى بريطانيا

— قضية غريبة فعلا ...

— ولكنى لم أذكر لك أغرب ما فيها يامستر هولمز . فمنذ نحو ست سنوات ، أو بالضبط فى اليوم الرابع من شهر مايو سنة ١٨٨٢ ظهر فى صحيفة التايمس اعلان غفل من التوقيع يسأل عن عنوان الآنسة مارى مورستان ويؤكد ان إظهار عنوانها ستترتب عليه فائدة لها . وترددت لأن الاعلان لا يحمل توقيعاً أو عنواناً . وكنت حديثة عهد بالالتحاق بأسرة مسز سيسل فورستر فى وظيفة مربية . فأشارت علىّ أن أنشر عنوانى فى عمود الاعلانات الصغيرة . وفى عصر يوم ظهور الاعلان الذى يتضمن عنوانى وصلنى بالبريد صندوق صغير فتحته لأجد بداخله لؤلؤة كبيرة الحجم جداً باهرة الضياء . ولم أجد مع اللؤلؤة كلمة واحدة

— عجباً !...

— وأعجب من هذا أيضاً انه فى نفس ذلك اليوم من كل سنة بعد ذلك كنت أتلقى صندوقاً شبيهاً بذلك الصندوق به لؤلؤة شبيهة بتلك اللؤلؤة وليس معها أى دليل يهدينى الى من أرسلها . وقد عرضت اللآلىء على خبير فأفتى انها من نوع نادر وذات قيمة هائلة . وتستطيع أن تحكم بنفسك يامستر هولمز على مبلغ روعتها

ثم فتحت صندوقاً مستطيلا وأرتنى كما أرت هولمز ستاً من أبهر اللآلىء التى وقعت عليها عيناى . فقال شارلوك هولمز :

— انها وقائع تسترعى الاهتمام الى أقصى حد . هل حدث لك شىء آخر ؟

— نعم . وفى يومنا هذا بالذات . ولذلك جئت اليك . ففى هذا الصباح تسلمت هذا الخطاب الذى قد تستطيع أن تقرأه بنفسك

— شكراً لك . والظروف أيضاً من فضلك . ان خاتم البريد يدل على انه صادر من جنوب غرب لندن فى ٧ يوليو . وعلى الظروف بصمة فى الركن ربما كانت بصمة يد ساعى البريد . والورق من أرقى نوع مما يدل على ان مرسل الخطاب متأنق فى أدواته الكتابية . ولكنه لا يحمل عنواناً خاصاً . ونص السطور « كونى عند العمود الثالث من جهة اليسار خارج مسرح اللثيوم هذا المساء فى السابعة تماماً . إن لم تكونى مطمئنة احضرى معك صديقين . فأنت امرأة مغبونة مجنى عليها وسننتصف لك . لا تحضرى البوليس . فانك إن فعلت ضاع كل شىء - صديقك المجهول » ... الحقيقة يا آنسة ان هذا لغز ظريف للغاية ! وماذا فى نيتك أن تصنعى يا آنسة مورستان ؟

— هذا بالضبط هو السؤال الذى أريد أن أوجهه اليك !

— مادمت سألتنى رأيى فسنذهب بكل تأكيد . أنت وأنا والدكتور وطسن . فالخطاب يقول انه مسموح لك بصديقين . ونحن سبق لنا ان عملنا معاً فى بعض القضايا

— لهذا كنت حريصة أن يبقى . ولكن هل يقبل الذهاب معنا ؟

وكان فى صوتها ومحياها من الضراعة والوداعة ما أثار نخوتى فقلت :

— من دواعى فخرى وسرورى أن أقوم لك بأى خدمة يا آنسة

— كلا كما آية فى التلطف والعطف . فقد قضيت عمرى بمعزل عن الناس وليس لى أصدقاء ألجأ اليهم . والآن أنصرف . وأظن اننى لا أكون متأخرة إذا حضرت هنا فى الساعة السادسة

— يجب ألا تتأخرى عن السادسة . ولكن هناك نقطة أخرى أحب أن أستوضحك إياها . هل هذا الخط هو الخط نفسه الذى كتبت به عناوين الصناديق التى وصلتك بالبريد وبداخلها اللآلىء ؟

— كل هذه العناوين معى هنا

ثم أخرجت ست قصاصات من الورق تناولها هولمز وبسطها فوق المكتب ثم راح يلقى عليها على التوالى نظرات فاحصة

— إنك فى الحقيقة زبونة نموذجية وتتمتعين بفطنة سديدة . ومن الواضح ان الكاتب يغير خطه عمداً فى تلك العناوين . ماعدا الخطاب . ومع هذا فلا يمكن أن يكون هناك شك لدى الخبير فى ان كاتبها جميعاً واحد . وأحب أن أسألك يا آنسة مورستان هل هناك أدنى شبه بين هذا الخط وخط والدك ؟ مع احتفاظى برأيى فى الموضوع

— ليس هناك خط أبعد شبهاً عن خط والدى من هذا الخط

— كنت أتوقع أن أسمع منك هذا الجواب . وسننتظر قدومك فى السادسة. وسأحتفظ بالأوراق لأنى قد أنظر فيها فى تلك المدة . والى اللقاء

وبابتسامة رشيقة وضيئة أعادت صندوق اللآلىء الى صدرها ثم أسرعت بالانصراف . ووقفت أنا وراء ستار النافذة أرقب خطوتها السريعة فى الشارع الى أن اختفت ريشة قبعتها البيضاء فى زحام الناس ثم استدرت الى صاحبى وقلت له :

— يالها من امرأة جذابة جداً

وكان هولمز قد أشعل غليونه ثانية واضطجع فى المقعد وأرخى عينيه . فقال بتراخ شديد :

— أحقاً ؟ انى لم ألاحظ ذلك

فصحت به محنقاً :

— ما أنت فى الحقيقة إلا انسان ميكانيكى . آلة حاسبة ! ان فيك شيئاً لا انسانياً فى بعض الأوقات

فابتسم برفق وقال بهدوء :

— من الأهمية بمكان ألا تسمح لتفكيرك بالانحراف بتأثير الصفات والعوامل العاطفية . فالزبون أو الزبونة فى نظرى مجرد وحدة أو عنصر فى مشكلة ليس إلا . إن العوارض العاطفية عدو لدود للتفكير الواضح المستقيم . وأؤكد لك ان أشد النساء اللواتى عرفتهن سحراً وفتنة لقيت حتفها شنقاً لأنها كانت قد قتلت بالسم ثلاثة أطفال صغار كى تحصل على أموال التأمين على حياتهم . وفى الوقت نفسه أقبح انسان رأيته خلقة رجل من كبار المحسنين أنفق قرابة المليون لتحسين مستوى المعيشة بين فقراء لندن وطبقتها العاملة

— ولكن فى حالتنا هذه ؟!.

— أعرف ماذا تريد أن تقول . ولكنى لست مستعداً ان أسمح فى منهجى العقلى بأى استثناء . فالاستثناء يحطم القواعد . وأحسن من هذا أن نبدأ فى تحضير الحل المناسب لقضيتنا . فقل لى هل تعرف شيئاً عن الفراسة ودلالة الخطوط على الطباع ؟ ما رأيك فى خط هذا الشخص ؟

— إنه واضح ومنتظم . وذلك يدل على جد وقوة فى الشخصية

فهز هولمز رأسه معترضاً وقال :

— انظر الى الحروف الطويلة مثل حرف اللام والكاف . انها لا ترتفع كما ينبغى عن مستوى الحروف المنخفضة مثل الباء والنون . وبذلك يصعب التفريق لأول وهلة . أما ذوو الطباع القوية فيفرقون بين الحروف الطويلة والمنخفضة مهما كان خطهم رديئاً . والآن أتركك وأخرج قليلا لأن هناك بعض عناصر أحب أن أراجعها فى المكتبة العامة . وأوصيك بقراءة هذا الكتاب الذى كان فى يدى . فهو من خير ماسطرته الأقلام وعنوانه «استشهاد الانسان» فاقرأ فيه الى أن أرجع بعد ساعة

وجلست بجانب النافذة والكتاب فى يدى . بيد ان أفكارى كانت بعيدة كل البعد عن خطرات ذلك المؤلف الجرىء . كان عقلى مشغولا بزائرتنا . فرحت أتخيلها وهى تمشى . وأتمثلها وهى تبتسم ابتسامتها الوضيئة الوادعة . ورن فى أذنى نغم صوتها العميق الغنى . وتثير خاطرى بلغز حياتها الغامض

انها تقول انها كانت فى السابعة عشرة عند ما اختفى والدها منذ عشر سنين . ومعنى هذا انها الآن فى السابعة والعشرين

سن مناسبة بديعة لعمرى ! يكون فيها الشباب قد فقد رعونته وفاء الى شىء من التجربة وإدراك طعوم الحياة على حقيقتها !

وعلى هذا النحو جلست أسرح بخواطرى . الى أن راودتنى فكرة أشفقت منها فانتفضت واقفاً لأشغل نفسى بقراءة أحدث كتبى الطبية . فمن أنا ؟ انى لست إلا جراحاً سابقاً فى الجيش مهيض الساق أعرج المشية حين تشتد الرطوبة. ورصيدى فى البنك أشد عرجاً من ساقى ! فأى حق لى أن أفكر فى شىء من هذا القبيل ؟

لقد صدق هولمز . ينبغى أن تظل الآنسة مورستان عنصراً مجرداً فى مشكلة . ولئن كان مستقبلى حالكا فمن الخير أن أواجهه وحدى فى رجولة ولا أحلم بتبديد ظلماته بآمال وهمية



الفصل الثالث

وراء الحل

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة بثلاثين دقيقة حينما عاد هولمز . ولاحظت أنه كان مشرقاً منشرحاً . وهى حالة كانت تنتابه حينما لا يكون تحت وطأة الوجوم والاكتئاب . فصببت له فنجاناً من الشاى ، تناوله وقال لى :

— ليس فى هذا الشأن غموض كبير . فالوقائع يبدو لى أنها لا تسمح إلا بتفسير واحد فقط

— ماذا ؟ هل حللت اللغز حقاً ؟

— ربما كان فى ذلك تجاوز للواقع . فكل ماهناك أننى اكتشفت طريقاً واضحاً للعمل . واضحاً جداً . ولكن تنقصنى سائر التفاصيل . فقد راجعت الصفحات الأخيرة من مجموعة جريدة التايمس ، فوجدت أن الميجور شولتو القاطن فى نوروود العليا والضابط السابق فى الفرقة الرابعة والثلاثين من مشاة بومباى انتقل إلى رحمة الله فى ٢٨ من ابريل سنة ١٨٨٢

— ربما كانت لهذا أهميته الكبرى يا هولمز . ولكنى لا أستطيع أن أتبين وجه تلك الأهمية

— حقاً ؟ إنك تدهشنى . انظر إلى الموضوع من هذه الزاوية . لقد اختفى الكابتن مورستان . والشخص الوحيد فى لندن الذى كان يمكن له أن يذهب لزيارته هو الميجور شولتو . والميجور شولتو أنكر مجرد علمه بوجود الكابتن مورستان فى لندن . وبعد أربع سنوات مات شولتو . وإذا راجعت تاريخ موته بالضبط وجدت أنه بعد ذلك التاريخ بأسبوع تلقت الابنة الوحيدة للكابتن مورستان هدية ثمينة ظلت تتكرر سنة بعد سنة إلى أن انتهى

الأمر بهذه الرسالة التى تصفها بأنها امرأة مغبونة مجنى عليها . فأى غبن يمكن أن تشير اليه الرسالة اللهم إلا حرمانها من والدها ؟ ولماذا لم تبدأ هذه السلسلة من الهدايا إلا بعد وفاة شولتو مباشرة . إلا إذا كان وريث شولتو يعلم شيئاً عن هذا اللغز – لغز اختفاء مورستان – ويريد أن يعوض الفتاة عن ذلك ؟

وحملق هولمز فى وجهى ملياً قبل أن يسألنى بتحد :

— هل لديك نظرية أخرى يمكن أن تفسر هذه الوقائع ؟

— ولكن يا له من تعويض غريب ! وما أعجب الطريقة التى يؤدى بها ! ولكن خبرنى لماذا يكتب خطابه اليوم ولم يكتبه منذ ست سنوات ؟ ثم إن الخطاب يتحدث أيضاً عن انصافها . وأى انصاف يمكن أن تحصل عليه ؟ من التعسف أن نفترض أن الوالد ما زال على قيد الحياة . وليس هناك غبن فى موضوعها سوى اختفاء والدها فيما نعلم

فهز شارلوك هولمز رأسه متفكراً ثم قال :

— هناك صعوبات . هذا مؤكد . ولكن رحلتنا التى سنقوم بها هذه الليلة ستحل تلك الصعوبات جميعاً

وكانت عينه الى النافذة فصاح :

— وها هى الآنسة مورستان قد أقبلت فى عربة مقفلة. هل أنت متأهب؟ اذن من الخير أن تنزل فوراً لأن الوقت قد أزف

وتناولت قبعتى وأثقل عصا أملكها . ولكنى لاحظت أن هولمز أخذ مسدسه من درج مكتبه ودسه فى جيبه . وكان واضحاً أنه يرى عملنا تلك الليلة محفوفاً بالمخاطر



ووجدت الآنسة مورستان ملتفة بعباءة قاتمة. وكان وجهها المرهف هادئاً ولكنه شاحب . وكان لابد لها أن تكون أكثر من امرأة إن لم تشعر بالقلق وهى مقدمة على هذه العملية الغريبة المجهولة النهاية . ومع هذا كانت مالكة لجأشها تماماً . وأجابت ببديهة حاضرة على الأسئلة الاضافية التى وجهها إليها شارلوك هولمز بخصوص الميجور شولتو

— كان الميجور شولتو صديقاً حميما جداً لأبى . فخطابات أبى حافلة

بالاشارات إليه . وكانا معاً من المسئولين عن قيادة الحرس فى جزائر أندمان المنعزلة . فجعلهما ذلك حميمين جداً لعيشهما معاً فترة طويلة من غير عشراء . وبهذه المناسبة أذكر أننى وجدت فى حقائب أبى ورقة لم يستطع أحد أن يفهم مغزاها . وأنا شخصياً لا أظن لها أى أهمية . بيد أنى فكرت أنك ربما أحببت أن تنظر فيها . ولهذا أتيت بها معى . وهاك هى

ففض هولمز الورقة بعناية ثم بسطها على ركبته وشرع بعد ذلك يفحصها فحصاً منهجياً بعدسته المزدوجة ثم قال :

— ان الورقة مصنوعة فى الهند . وقد ظلت هذه القصاصة مثبتة فى لوحة بدبوس فترة من الزمن . والرسم الذى عليها يبدو أنه تخطيط لجزء من بناء كبير فيه أبهاء متعددة ودهاليز وممرات . وفى موضع منه صليب صغير أحمر بالحبر . وفوقه بقلم رصاص باهت « ٣ر٣٧ من اليسار » . وفى الركن الأيسر رسوم هيروغليفية أشبه بأربعة صلبان فى خط واحد تتلامس أذرعها . والى جانبها بخط غير سوى « علامة الـ ٤ . جوناثان سمول . ومحمد سنغ . وعبد الله خان . ودوست أكبر » . والحقيقة يا آنسة أننى لا أرى كيف يمكن أن تكون لهذه الورقة صلة بموضوعنا . ومع هذا فهى ولا شك وثيقة هامة . لأنها ظلت محفوظة بعناية فى حافظة النقود . ولهذا بقيت أطرافها كلها نظيفة

— لقد وجدناها فعلا فى حافظة النقود

— احفظيها اذن جيداً يا آنسة مورستان . فقد يثبت أنها ذات فائدة لنا . وقد بدأت أعتقد أن هذا الموضوع ربما تكشف أنه أعمق وأشد تعقيداً مما خطر لى لأول وهلة . ولهذا لابد لى من إعادة النظر فى أفكارى بصدده

ثم اضطجع فى العربة ورأيت من ارتفاع حاجبيه وخواء نظرته أنه كان يفكر تفكيراً عميقاً . فرحت أنا والآنسة مورستان نتجاذب أطراف الحديث بصوت منخفض عن رحلتنا الراهنة وما يمكن أن تتمخض عنه من النتائج ، ولكن صاحبى ظل محتفظاً بانطوائه العميق الى نهاية رحلتنا

وكنا فى ليلة من ليالى سبتمبر العبوس وقد بدأت حجب الضباب تخيم على المدينة الكبيرة . والسحب الداكنة تملأ السماء حتى بدت مصابيح شارع ستراند ضئيلة لا تكشف إلا محيطاً صغيراً فيما حولها . أما الأنوار الصفراء

الصادرة من واجهات الحوانيت فلم تكن تؤثر تأثيراً ملموساً . وأحسست أن فى الجو ما يوحى بظهور الأشباح . حتى لقد خيل لى أن المارة الذين يبرزون الى الضوء ويختفون فى الظلام بسرعة هم فى الواقع أرواح من عالم غيرمنظور. ودلتنى نظرتى الى وجه الآنسة مورستان أنها تعانى من مثل ذلك الاحساس . أما صاحبى فكان بعيداً عن ذلك الجو كل البعد لأنه فتح دفتر مذكراته فوق ركبته وراح يدون فيه على ضوء مصباح جيبه أرقاماً وكلمات للتذكرة فى ثبات وسرعة

وأمام مسرح اللقيوم كان الزحام شديداً عند الأبواب الجانبية التي تستعمل للدخول . وهناك سيل مستمر من العربات يفرغ شحناته من السادة فى ملابس السه. ة ءس السيدات فى الفراء والجواهر الباهرة

وما أن وصلنا الى العمود الثالث الذى تحدد للقاء ، حتى واجهنا على الفور رجل قصير القامة أسمر اللون خفيف الحركة يرتدى زى الحوذى فسألنا بعد أن تفحص وجوهنا :

— هل فيكم الآنسة مورستان ؟

— أنا الآنسة مورستان . وهذان السيدان صديقاى

فانحنى الرجل وأجال فينا نظرة فاحصة ثاقبة ثم قال :

— عفوك يا آنسة . لابد أن أطلب منك تعهداً بشرفك أن هذين السيدين ليس فيهما رجل بوليس

— أتعهد لك بهذا ...

فأطلق عندئذ صفارة رفيعة . فأقبل على الفور أحد السياس يقود عربة كبيرة مقفلة وفتح بابها . وصعد الرجل الذى كان يخاطبنا الى مقعد السائق العلوى وجلسنا نحن فى الداخل . وما أن فعلنا حتي ألهب السائق ظهر الجواد فانطلقت بنا العربة فى الشوارع المعتمة بين طوايا الضباب بسرعة رهيبة قبل أن نفطن الى الموقف الجديد

والحقيقة أن موقفنا كان شاذاً . فها نحن نركب عربة الى مكان مجهول فى مهمة مجهولة ، فاما أن يكون صاحب الدعوة إنساناً مخبولا ، وهـذا فرض ليس له ما يبرره ، وإما أن تكون هذه الرحلة حافلة بالنتائج المثيرة

وكان محيا الآنسة مورستان ينم عن الثبات ورباطة الجأش كعهدى به . ولـكنى قدرت أنها تخفى تحت ذلك المظهر المتماسك توجساً طبيعياً . فشرعت أسرى عنها بذكريات من مغامراتى فى بلاد الأفغان . بيد أنى أعترف أن محاولتي هذه كانت تظاهراً يكمن تحته قلق . ولهذا كانت نبرات صوتى عصبية وسياق حديثى مضطرباً شيئاً ما

وقد أفلحت فى بداية المرحلة أن أكون فكرة عن اتجاه العربة . ولـكن سرعان ما تآمر الضباب الـكثيف مع سرعة العربة ، بالاضافة إلى معلوماتى الشخصية المحدودة عن مدينة لندن ، ففقدت الخيط ولم أعد أعرف شيئاً اللهم إلا أننا فيما يبدو بصدد رحلة طويلة المدى

أما شرلوك هولمز فلم يغب عنـه شىء . فقد سمعته يغمغم بالأسماء حين تخترق العربة الميادين وتدور فى الشوارع الجانبية المتعرجة كأنما تعمد إلى ذلك للتضليل

— روشستر رو . . . والآن هـذا ميدان فنسنت . ثم ها نحن نخرج إلى طريق كوبرى فوكس هول . يبدو أننا نتجه إلى ضفة سورى . هذا فعلا ما توقعته . نحن الآن فوق الـكوبرى . فى وسعكما أن تلمحا صفحة النهر فى ضوء المصابيح

ونظرنا فرأينا بالفعل لمحات من نهر التاميز السا كنـة ، ولـكن عربتنا لم تلبث أن عبرت النهر بسرعة ثم اندمجت فى تيه من الشوارع فوق الضفة الأخرى . واستأنف صاحبي ذكر الأمكنة التي نمر بها :

— طريق واندس ويرث . طريق بريورى . حارة لارك هول . شارع روبرت . حارة المرفأ البارد . . . يظهر أن داعينا لا ينوى أن ينزلنا بالمناطق الراقية من العاصمة

وكنا فعلا قد دخلنا فى منطقة موحشة حقيرة فيها صفوف طويلة من بيوت مبنية بالطوب الأحمر تفصل فيما بينها حانات من النوع الرخيص على أركان الشوارع

ثم خرجنا من ذلك الحى إلى حى فيه فيلات من طابقين أمام كل منها حديقة صغيرة . ثم أفضى بنا ذلك الحى إلى أبنية أخرى حديثة على مشارف لندن من جهة الريف المترامى

وأخيراً وقفت العربة عند البيت الثالث من مجموعة بيوت منعزله . وكانت للبيت شرفة كبيرة جديدة . وهو البيت الوحيد المأهول فى تلك المجموعة . لأن سائر البيوت كانت مظلمة تماماً . وحتى هذا البيت كان الدليل الوحيد على أنه مأهول صدور الضوء من نافذة المطبخ . أما سائر النوافذ فكانت معتمة كالبيوت المحيطة به تماماً

ولما طرقنا الباب فتحه على الفور خادم هندى لف رأسه بعمامة كبيرة صفراء . وأما ملابسه فبيضاء ناصعة فضفاضة وفى وسطه حزام أصفر فاقع . فزاد هـذا المنظر الشرقى من استغرابنا . لأنه منظر لا يتفق مع الطراز الحديث لذلك البناء فى ضواحى لندن

وقطع الرجل علينا أفكارنا بقوله :

— إن الصاحب ينتظركم

ولـكنه لم يكد يتم عبارته القصيرة حتى صافح آذاننا من الداخل صوت مرتفع عذب النغمات يصيح :

— أدخلهم عندى يا ختموتجار . أدخلهم عندى فوراً



الفصل الرابع

قصة الرجل الأصلع

اقتفينا أثر الخادم الهندى ، فسلك بنا دهليزاً عادياً خالياً من الأثاث معتما قابضاً للصدر إلى أن وصل إلى باب عن يمينه دفعه فانفتح . وعندئذ سقط علينا سلسال من الضوء الأصفر المتوهج . وتبينا فى مركز ذلك الوهج رجلا صغير القامة وقد وقف فاذا له دماغ مرتفع جداً من يافوخه ، يحيط به سياج من الشعر الأحمر . أما جمجمته كلها فتلمع فى النور كما تتوهج قمة الجبل التي تغطيها الثلوج ومن حولها أشجار الجهنمية ذات اللون الأحمر الصارخ

وكان هذا الرجل يفرك يديه وهو واقف فى مكانه ، وملامح وجهـه تتحرك كحركة يديه فى عصبية ، بالابتسام تارة ، وبالعبوس تارة أخرى . فوجهه على الجملة لم يستقر على حال واحد لحظة واحدة ، وقد منحته الطبيعة شفة ممطوطة تنفرج عن سطرين من الأسنان الصفراء البارزة غير المنتظمة ، كان يجتهد فى إخفائهما بتمرير كفه على الجزء الأسفل من وجهه فى فترات متقاربة

وعلى الرغم من صلعه الكامل ، كان يبدو فى ريعان الشباب من أول وهلة . والواقع أن سنه لم تكن قد جاوزت الثلاثين

وقد ابتدرنا يقول بصوته المرتفع الرفيع :

— خادمك يا آنسة مورستان . خادمكم أيها السادة . تفضلوا بالدخول فى محرابى الصغير . إنه مكان غير رحب يا آنسة . بيد أنى أسسته على هواى . فجاء واحة من الفن فى صحراء جنوبى لندن

وقد دهشنا جميعاً لمظهر الحجرة التي دعانا للدخول فيها . إذ بدت لنا فى

ذلك البيت الكئيب وكأنها ماسة من أرقى طبقة فى حلية من النحاس . فثمت أفخر أنواع الستائر وأغلاها . وعلى الجدران من الطنافس أثمنها وأبهاها ، تتباعد هنا وهناك لتبرز للعيان لوحة ثمينة الاطار أو زهرية شرقية نفيسة

أما البساط فكان بلون العنبر ولون الكحل ، وله وبر ناعم سميك تغوص فيه القدمان كأنهما تخطران على أديم من العشب . وقد زادت من طابعه الشرقى جلود نمور هائلة تناثرت فوقه هنا وهناك . وفى ركن منه حشية صغيرة بجوارها نرجيلة مطعمة بالفضة . وأما المصباح الذى تدلى من السقف بسلاسل من الذهب فكان قنديلا صنع من الفضة الخالصة على شكل حمامة . والوقود الذى كانت تنبعث منه شعلة تلك الحمامة له نفح عطر كرائحة العود والند

واستطرد الرجل الضئيل بصوته الصارخ يقول :

— اسمى ثاديوس شولتو . هذا هو اسمى . وأنت طبعاً الآنسة مورستان . وهذان السيدان هما . . .

— أما هذا فمستر شرلوك هولمز . والآخر هو الدكتور واطسن

فصاح بحماسة وهو ينظر إلىّ :

— أطبيب أنت ؟ هل معك مسماعك ؟ هل لى أن أطلب إليك إذا تعطفت ؟ إن عندى شكوكا حول أحد صمامات قلبى أرجو أن تتكرم بجلائها . أستطيع فيما أعتقد أن أركن إلى الأورطى . أما الصمام الآخر فأريد رأيك فيه

فأخرجت مسماعى وأصغيت إلى قلبه كما طلب . فلم أجد به بأساً فيما عدا أنه كان واقعاً تحت تأثير نوبة خوف شديد . إذ راح يرتجف من رأسه إلى قدمه . فقلت له بكل هدوء :

— لك أن تطمئن . فصمامات قلبك تبدو عادية ولا داعى للقلق

— أرجو أن تغفر لى الآنسة مورستان انزعاجى . فقد طال بى الارتياب فى ذلك الصمام حتى عذبنى الشك . وكم يسرنى أن أسمع الآن أن صماماتى بخير . ولو أن والدك يا آنسة مورستان لم يكن بالغ فى إجهاد قلبه ، لكان حياً الآن

ووددت فى تلك اللحظة لو لطمت وجه ذلك الرجل بكل قوتى . فقد شعرت بغضب شديد من الطريقة المستهترة التى أفضى بها إلى الآنسة مورستان بخبر وفاة أبيها . ورأيت الآنسة تجلس فجأة وقد ابيض وجهها حتى شفتيها وقالت :

— كنت أعرف فى أعماق فؤادى أنه مات

— وفى استطاعتي أن أدلى اليك بكافة المعلومات . وأكثر من هذا فى وسعى أن أنصفك . وهذا ما سأفعله مهما كان رأى أخى برثلوميو . وإنى لسعيد بوجود صديقيك هنا ، لا كحرس لك فقط بل كشاهدين أيضاً على كل ما سأقوله وكل ما أنوى أن أفعله . فنحن يمكن أن نقابل الأخ برثلوميو بجبهة قوية . ولكن يجب ألا يكون هناك دخلاء من الشرطة أو السلطات الرسمية . لأننا نستطيع أن نصل إلى حل يرضى الجميع فيما بيننا من غير تدخل أحد . ولن يضايق الأخ برثلوميو شيء مثل حدوث أى شوشرة

ثم جلس فوق مقعد منخفض وراح يرمقنا بنظرة متسائلة من عينيه الزرقاوين الضعيفتين ، فقال هولمز :

— فيما يتعلق بى ، سأحتفظ لنفسى بكل ما تقوله

وأومأت أنا برأسى علامة على الموافقة . فقال :

— هذا عظيم ! هل لى أن أقدم لكم كأساً من الكيانتي يا آنسة مورستان ؟ أم كأساً من الطوكاى ؟ فأنا لا أحتفظ هنا بأى نوع آخر من الأنبذة . أأفتح قنينة ؟ كلا ؟ كما تشاؤون . وأرجو ألا يكون لديك يا آنسة مورستان اعتراض على دخان هذا الطباق الشرقى المعطر . فإنى عصبى المزاج وأجد فى نرجيلتى تهدئة لا تقدر قيمتها بمال

ووضع المبسم الكهرمانى الثمين فى فمه . فجعل الدخان يتصاعد فى فقاقيع مكركرة بين ماء الورد . وكنا نحن الثلاثة جلوساً فى نصف دائرة ، وقد مددنا رؤوسنا واعتمدنا بأذقاننا على أيدينا . فى حين انصرف ذلك الأصلع المهزوز الأعصاب يدخن نرجيلته فى مركز الدائرة . إلى أن قال :

— حينما خطر لى لأول مرة أن أتصل بك فكرت فى أن أبين فى الرسالة عنوانى . ولكنى تخوفت أن تتجاهلى دعوتى أو لا تراعى شروطها فتحضرين

معك أشخاصاً غير مرغوب فيهم . فأبحت لنفسى لهذا السبب أن يكون التقاؤنا بهذه الوسيلة حتى يتمكن تابعى وليامز من مقابلتك أولا والتأكد من صاحبيك . فأنا أثق بتكتمه ثقة كاملة . وكانت أوامري له أن يتوقف عن الاستمرار فى المسألة إذا لم تعجبه دلائل الأحوال . فأرجو أن تغفرى لى هذه الاحتياطات ، لأنى رجل له ذوق خاص ، محب للانزواء وللجمال . وليس من شيء أبعد عن الجمال من رجل الشرطة . وفى طبعى نفور فطرى من جميع صور الخشونة المادية . ولهذا يندر جداً أن أحتك بالجمهور الفظ . وأعيش كما ترين محيطا نفسى بجو فيه شيء من التأنق والرفاهية . فرعاية الفنون هى نقطة ضعفى . ولذلك اشتريت هذه اللوحات التى رسمها عباقرة المصورين ، ولم أدخر فى ذلك ثمناً

— عفوك يامستر شولتو . إن السبب فى حضورى إلى هنا بناء على طلبك هو رغبتى فى أن أعرف سراً معيناً رغبت أنت فى اطلاعى عليه . ونحن الآن فى ساعة متأخرة . لهذا فى مرجوى أن تستغرق المقابلة أقصر مدة ممكنة

— بل لابد أن تستغرق بعض الوقت على أحسن الفروض ، لأننا ينبغى بالتأكيد أن نذهب إلى نروود كى نقابل الأخ برثلوميو . سنذهب جميعاً ونحاول أن نقنعه بالحسنى . لأنه حانق علىّ جداً منذ سلكت الاتجاه الذى بدا لى صواباً . وقد تشاجرنا فى الليلة الماضية وتبادلنا الألفاظ القاسية . ولن تستطيعوا أن تتصوروا أى فتى فظيع يصبح أخى حين يغضب

فاقترحت أنا أن نبادر بالذهاب إلى نروود إن كان ذلك أمراً محتوماً . كى لا نتأخر فى العودة . وعند ذلك انطلق يقهقه حتى احمرت أذناه وقال :

— لا يمكن أن نذهب هكذا . فأنا لا أدرى ماذا يمكن أن يقول إن أنا أخذتكم اليه على هذه الصورة المفاجئة . ويجب أولا أن أعدكم للموقف بأن أخبركم ببضعة أمور هامة . مع العلم أن عناصر خطيرة فى الموضوع مازالت سراً خافياً علىّ أنا نفسى . وكل ما فى استطاعتى هو أن أضع أمامكم الوقائع كما هى فى علمى

الفصل الخامس

شبح فى النافذة

وها كم القصة كما رواها لنا بصوته الحاد وملامحه المتغيرة :

« كان أبى كما أظنكم قد خمنتم هو الميجور جون شولتو ، من ضباط الجيش الهندى السابقين . وقد أحال نفسه الى التقاعد منذ نحو احد عشر عاماً ، وجاء ليقيم فى بونديتشيرى لودج فى نروود العليا

« وكان قد أثرى وهو فى الهند وعاد من هناك ومعه مبلغ طائل من المال ومجموعة ضخمة من الطرائف الثمينة ، وطاقم كامل من الخدم الوطنيين . وبفضل هذه المزايا اشترى لنفسه بيتاً وعاش فيه محوطاً بأبهة كبيرة . ولم يكن له من الذرية سواى أنا وشقيقى التوأم برثلوميو

« وانى أذكر بكل وضوح تلك الجلبة التى أحدثها اختفاء الكابتن مورستان . فقد طالعنا التفاصيل فى الصحف ، ولما كنا نعلم أنه من أصدقاء والدنا فقد ناقشنا تلك القضية بكل توسع فى حضوره . فكان يشارك فى تكهناتنا عما عساه حدث لصديقه . ولم يخطر لنا فى أى لحظة انه كان يحتفظ فى صدره بسر ذلك الاختفاء كاملا ، وأنه الوحيد بين العالمين الذى كان يعلم مصير آرثر مورستان

« ومع هذا فقد كنا نعرف أن هناك لغزاً غامضاً ، أو خطراً واضحاً ، يرفرف بجناحيه حول أبينا . إذ كان يخشى كل الخشية أن يخرج وحده ، وكان على الدوام يستخدم مصارعين محترفين بصفة بوابين فى بوند يتشيرى لودج . ووليمز الذى جاء بكم الليلة الى هنا فى العربة هو أحد هذين . وكان فى يوم من الأيام بطل الوزن الخفيف بين مصارعى انجلترا

« ولم يشأ والدنا أن يدلى الينا بأى شىء عن مصدر خوفه . الا أننا لاحظنا كراهيته الظاهرة لجميع ذوى الأرجل الخشبية ، حتى أنه فى احدى المناسبات أطلق رصاص مسدسه بالفعل على رجل ذى رجل خشبية اتضح أنه بائع متجول مسكين مأمون الجانب طرق بابنا التماساً للرزق . واضطر إزاء ذلك ان يدفع للرجل مبلغاً كبيراً كى يتكتم الأمر. وقد خطر لى أنا وشقيقى أن ذلك الخوف ليس الا نزوة من نزوات هذا الرجل . بيد أن الحوادث التالية أدت بنا بعد ذلك الى تغيير رأينا

« ففى أوائل سنة ١٨٨٢ تسلم والدى خطاباً من الهند كان وقعه عليه شديداً للغاية ، حتى أنه أوشك أن يغمى عليه عندما فضه وهو على مائدة الافطار. ولم نستطع أن نكتشف مطلقاً ماذا كان فى الخطاب ، ولكنى تبينت حين كان ممسكا به فى يده أنه كان موجزاً وبخط كبير . وأصاب والدى السقم منذ تلك اللحظة الى أن مات . أجل انه كان مريضاً بالطحال من قبل . لكن حالته أمعنت فى السوء بسرعة. وفى أواخر شهر أبريل علمنا أن صحته أصبحت ميئوسا منها ، ولهذا فهو يريد أن يفضى الينا بكلمته الأخيرة

« فلما دخلنا حجرته كانوا قد أجلسوه فى الفراش مستنداً الى الوسائد وهو يلتقط أنفاسه فى صعوبة . فطلب منا أن نغلق الباب وأن نقف على جانبى فراشه. وعندئذ تناول يدينا وأدلى الينا بموضوع خطير ، فى صوت تعاونت على تحطيم نبراته عوامل الانفعال وعوامل الألم . وسأحاول هنا أن أخبركم بما قال بنصه كما وعته ذاكرتى . قال :

— لا يثقل على قلبى فى هذه اللحظة الحاسمة غير عبء واحد . وأعنى بذلك الطريقة التى عاملت بها اليتيمة المسكينة ابنة مورستان . فطمعى الملعون الذى كان رذيلتى الملازمة طيلة حياتى هو الذى حرم هذه المسكينة من نصيبها فى الكنز . وذلك النصيب لا يقل عن النصف . ومع هذا لم أستفد أنا من هذا الكنز شيئاً . حقاً أن البخل أعمى وأحمق ! . فمحض الشعور بالامتلاك لذلك الكنز كان عزيزاً على نفسى حتى لم أستطع أن أحتمل فكرة مشاركة أحد لى فيه . أترايان الى هذه المسبحة من حبات اللؤلؤ الموضوعة بجوار قنينة الكينين ؟ حتى هذه لم أستطع أن أحمل نفسى على التخلى عنها . مع أننى كنت


وقال الميجور شولتو وهو يشير للشبح : « امنعاه عنى بحق المسيح ! »

قد أخرجتها من صندوق الكنز على نية ارسالها اليها . فعليكما ياولدى أن تعطياها نصيباً عادلا من كنز « أجرا » . ولكن لاتبعثا اليها بشىء — حتى ولا هذه المسبحة — ريثما أمضى لحال سبيلى . فكم من رجل وصل من السوء الى هذا الحد ثم شفى . وسأخبركما الآن كيف مات مورستان . إنه كان يعانى منذ سنوات من ضعف القلب ، الا أنه أخفى ذلك عن الجميع . فلم يعلم به أحد سواى. وعندما كنا فى الهند وصل الى أيدينا عن طريق ملابسات غريبة كنز هائل . أحضرته أنا الى انجلترا . فلما جاء مورستان من الهند حضر الى هنا مباشرة ليطالبنى بنصيبه . وكان حضوره سيراً على قدميه من المحطة وكان الذى أدخله عندى هو خادمى الأمين العجوز « لال شودار » الذى مات بعد ذلك . ونشب بينى وبين مورستان خلاف فى الرأى حول طريقة تقسيم الكنز وأوصلنا ذلك الى التنابذ بالألفاظ الحادة . فاذا مورستان ينفر قائماً من مقعده فى نوبة غضب شديد . وفجأة وضع يده على جنبه ، وسرت الزرقة فى وجهه ، ووقع على ظهره فشجت رأسه على زاوية صندوق الكنز الحديدى . فلما انحنيت فوقه اعترانى الذعر الشديد . لأنى وجدته ميتاً . ولبثت فترة طويلة جالساً لا أقوى على الحراك ، شارداً لا أستطيع التفكير فيما أصنع . وأول خاطر خطر لى طبعاً هو الصراخ فى طلب النجدة . ولكن لم يكن هناك مناص من جلب تهمة قتله على رأسى لو فعلت ذلك . لأنه مات ونحن نتشاجر . وشج مؤخرة رأسه دليل قوى ضدى . ثم إن التحقيق الرسمى لايمكن أن ينتهى من غير افتضاح سر ذلك الكنز الذى كنت حريصاً على كتمانه . وكان قد أخبرنى أنه ما من إنسان على وجه الأرض يعرف أين ذهب فبدا لى أنه لا ضرورة لأن يعلم أحد ذلك عن طريق ، وكنت مستغرقاً فى فحص تلك المسألة وتقليبها فى ذهنى حينما رفعت رأسى فاذا بخادمى لال شودار واقف فى فرجة الباب . فتسلل داخلا وأغلق الباب بالمزلاج وراءه ثم قال لى: « لاتخف ياصاحب . لالزوم لأن يعرف أحد أنك قتلته . فلنخفه بعيداً . ولن يصيبنا من ذلك سوء » . فلما حاولت أن أقنعه بأنى لم أقتله ، هز لال شودار رأسه وابتسم ثم قال: « لقد سمعت كل شىء وأنا خارج الباب ياصاحب . سمعتكما تتشاجران . ثم سمعت صوت الصدمة . ولكن اطمئن ياصاحب . فعلى فمى قفل ضاع مفتاحه . والجميع فى الدار نيام

فهيا بنا ننقله خفية معاً » . فكان كلامه هذا كافياً لاقناعى بحكمة الصمت لأنه ان كان خادمى الخاص وعشيرى القديم نفسه لايريد أن يصدق براءتى ، أولا يستطيع ذلك ، فكيف يجوز لى أن أتوقع النجاح فى ادخال الحقيقة فى رؤوس اثنى عشر معتوهاً من المحلفين ؟ لهذا نهضت ونقلت الجثة فى تلك الليلة مع لال شودار الى حيث لا يكتشف أمرها أحد . وبعد بضعة أيام كانت صحف لندن طافحة بأنباء الاختفاء الغامض الذى وقع للكابتن مورستان . ومن هذا يمكن أن تريا أن والدكما لا يمكن أن يقع عليه اللوم فى مقتله . وإنما كل اللوم الذى أتعذب الآن منه لأننى كما أخفيت الجثة أخفيت أمر ذلك الكنز . ووضعت يدى على نصيب مورستان كما وضعتها على نصيبى . ومن أجل هذا أرغب اليكما أن تصلحا ذلك الخطأ . فأدنيا أذنيكما من فمى لأهمس لكما بالموضع الذى خبأت فيه الكنز . إنه فى . . . .

« وفى تلك اللحظة حدث لملامحه تغير بشع . فاذا حدقتاه تحدقان بوحشية واذا فكه يسقط . واذا به يصرخ بصوت لن أستطيع أن أنساه :

— امنعاه عنى بحق المسيح ! ابقياه خارجاً !

« فتلفتنا كلانا وراء ظهرنا نحو النافذة التى كان بصره مركزاً عليها . فاذا وجه يطل علينا من ظلام الحديقة . وتبينا بياض الأنف فى الموضع الذى كان ملتصقاً بزجاج النافذة

« كان وجهاً ملتحياً كثير الشعر . له عينان قاسيتان وفى ملامحه شر مبيت وحقد دفين . فاندفعت أنا وأخى نحو النافذة . ولكن الرجل أسرع بالانصراف . فلما رجعنا الى أبينا ، كان رأسه منكسا فوق صدره ، وقد كف نبضه عن الخفقان »



الفصل السادس

البحث عن الكنز

توقف الشاب الأصلع عن الكلام برهة بعد أن وصل الى وفاة أبيه وأثار فى نفوسنا الفضول حول الشبح وحول ذلك الكنز الذى يخص الآنسة مورستان فيه مقدار النصف ولا يدرى أحد أين أخفاه الرجل الذى دفن سره معه . ثم استطرد بعد ذلك يقول :

« جعلنا نتحس جوانب الحديقة تلك الليلة بكل تدقيق مستطاع فلم نجد أثراً على الاطلاق لصاحب ذلك الوجه المخيف اللهم إلا علامة واحدة تحت النافذة مباشرة حيث كان يقف فى حوض الورد . ولولا هذه العلامة الواحدة لظننا أننا كنا واهمين وأنه لا وجه هناك ولا شبح

« وبعد قليل وجدنا بين أيدينا دليلا آخر على وجود عناصر خفية تقوم بأدوارها حولنا بمهارة . فقد وجدنا فى صباح اليوم التالى نافذة حجرة والدنا مفتوحة . وقد أخرج كل ما فى الدواليب والصناديق . ووجدنا فوق صدر الجثة قصاصة ممزقة من الورق وقد كتب فوقها بخط مهوش « الرقم ٤ » . ولم نفهم طبعاً معنى هذا الرقم ولا من عساه يكون الزائر الخفى . وكل ما استطعنا التأكد منه هو أن شيئاً من ممتلكات والدنا لم يسرق ، مع أن كل شىء قد قلب رأساً على عقب

« وبطبيعة الحال ربطت أنا وأخى بين هذه الحادثة وبين الخوف الذى سيطر على حياة أبى . ولكن فيما عدا ذلك بقى كل شىء فى الظلام »

وتريث الأصلع بعد ذلك كى يسوى النار فوق نرجيلته ويجذب منها أنفاساً أخرى عبقة . بل كان التشوق قد استولى علينا جميعاً أمام هذه الألغاز المتوالية.

وحتى الآنسة مورستان التى شحب وجهها فترة بعد أن سمعت بوفاة أبيها سرعان ما طغى الفضول عليها حتى نسيت تلك الصدمة . وأما شرلوك هولمز فاضطجع فى المقعد وقد ظهر على وجهه الاهتمام التام فلم يسعنى سوى أن ابتسم. لأنه فى صباح هذا اليوم نفسه كان قد شكا لى مر الشكوى من رتابة الحياة واقفارها مما يهز الأعصاب ويستثير الذهن . فاذا هو أمام معضلة تقف من مواهبه موقف التحدى . وبعد أن نقل رب الدار نظره بيننا مزهواً بنجاحه فى تعليق اهتمامنا بفمه قال :

« ولكم أن تتصوروا مقدار انشغال ذهنى أنا وأخى بموضوع ذلك الكنز المجهول الذى حدثنا والدنا عنه فقضينا أسابيع وشهورا نحفر وننقب فى كل جزء من أجزاء الحديقة من غير أن نوفق فى العثور على مكانه . وكنا نوشك أن نجن كلما تذكرنا أن مكان ذلك الكنز كان على طرف لسانه حينما فاجأه الموت . وكنا نتخيل نفاسة محتويات ذلك الكنز على ضوء تلك المسبحة المصنوعة من حبات اللؤلؤ . واحتدم الخلاف بينى وبين أخى برثلوميو حول تلك المسبحة. لأن اللآلىء التى صنعت منها عظيمة القيمة . ولهذا لم تسمح نفس شقيقى برثلوميو أن يتخلى عنها . فشقيقى برثلوميو بينى وبينكم ورث شيئاً من خصال أبى

« وكان من رأيه أيضاً أن تنازلنا عن هذه المسبحة سيفتح الباب على مصراعيه أمام الشائعات مما يسبب لنا المتاعب . وكل ما أفلحت فيه هو الحصول منه على لؤلؤة من حبات هذه المسبحة بين الحين والحين كى أرسلها الى الآنسة مورستان إراحة لضميرى بعض الشىء . وحتى لا تشعر أنها وحيدة فى الحياة »

فبادرت الآنسة مورستان تقول :

— كان هذا تلطفاً كريماً منك ...

— دعى هذا الكلام. فلم نكن إلا وصيين على حقوقك. أو هذا على الأقل كان رأيى فى الموضوع . وإن كان الشقيق برثلوميو قد خالفنى فيه . ولست أفهم مبرراته . فلدينا من المال ما يكفينا بالفعل . ولا أرب لى شخصياً فى مزيد من الثروة . ثم إنى لا أجد من الذوق أو الأدب أن تعامل سيدة شابة على هذا النحو السقيم . ولكن صدق الفرنسيون حين أحسنوا التعبير عن آداب السلوك فى مثلهم « ان فساد الذوق يفضى الى الجريمة » . وقد وصل الخلاف

بيننا فى هذا الشأن الى حد أننى رأيت من الأوفق أن استأجر لنفسى سكناً خاصاً . وعلى هذا الأساس غادرت بونديتشيرى لودج وصحبت معى خدمو تجار العجوز ووليامز

« وبالأمس بلغنى أن حادثاً على أقصى درجة من الأهمية قد وقع . ألا وان الكنز قد اكتشف مكانه . وعلى الفور اتصلت بالآنسة مورستان . ولا يبقى علينا الآن سوى أن نشد الرحال الى نورووود ونطالب بنصيبنا فى الكنز. ولما كنت قد بسطت وجهة نظرى ليلة أمس للأخ برثلوميو . فسوف نجده يتوقع زيارتنا . حتى ولو لم يرحب بها »

وتوقف المستر ثاديوس شولتو عن الكلام. ولزمنا نحن الصمت متفكرين فى الاتجاه الجديد الذى اتجهته المسألة الغامضة فى مجموعها

وكان هولمز أول من وثب منا للعمل فقفز واقفاً على قدميه وقال :

— لقد أحسنت صنعاً يا سيدى من البداية الى النهاية . ومن الممكن أن نرد إليك بعض جميلك بأن نلقى الضوء على الجانب الغامض الذى يهمك من القضية . ولكن الوقت متأخر كما لاحظت الآنسة مورستان . ولهذا يحسن أن ننشط للعمل من غير تأخير

وعندئذ طوى رب الدار خرطوم النرجيلة فى أناة ونظام . ثم استخرج من وراء إحدى الستائر معطفاً طويلا جداً غطيت ياقته وأكمامه بفراء الاستراخان الفاخر . وأقفل أزراره حتى الرقبة بالرغم من دفء الليلة . وأتم زينته بارتداء قبعة من فراء الأرانب يتدلى منها غطاءان للأذنين بحيث لا يبدو للعيان من وجهه إلا الصفحة الأمامية التى لا تستقر على حال . وعلق على ذلك وهو يتقدمنا فى الدهليز بقوله :

— ان صحتى ضعيفة بعض الشىء . ولهذا فأنا مضطر أن ألتزم الحيطة الى حد بعيد

وكانت العربة فى انتظارنا . ولا شك أن الترتيبات كانت معدة من قبل. لأن السائق انطلق بنا من غير كلام بأقصى سرعة ممكنة

وجعل ثاديوس شولتو يتحدث من غير انقطاع طول الطريق بصوته الحاد الذى يرتفع فوق جلبة العجلات

« إن برثلوميو انسان ماكر بارع الذكاء . أتدرون كيف اكتشف مكان الكنز ؟ لقد بحثنا فى الحديقة فلم نوفق . فانتهى الى الجزم بأن الكنز مخبوء فى مكان ما داخل أبواب الدار . فراح يحسب تكعيب البناء بأكمله بحيث لا تفلت منه بوصة واحدة . وجعل يقيس كل حجرة وكل خزانة . وبهذه الطريقة اكتشف ان ارتفاع البناء أربعة وسبعون قدماً . ولكنه عند ما أضاف ارتفاع الحجرات وما بينها من سقوف لم يصل المجموع الى أكثر من سبعين قدماً . ومعنى ذلك ان هناك ارتفاعا مقداره أربعة أقدام لم يدخل فى الحساب . ولا يمكن أن يكون إلا فى قمة البناء

« وعندئذ أحضر بنفسه وتداً من الحديد وخرق السقف من أعلى حجرة فى البيت . وإذا به يكتشف فعلا حجرة صغيرة داخل السقف المزدوج كان بابها مغطى بالجص ولا يعرف بوجودها أحد

« وفى وسط هذه الحجرة وجد خزانة الكنز . فدلاها من الثقب الذى أحدثه فى السقف بواسطة حبل . وهى الآن فى تلك الحجرة العليا التى أقام بها شخصياً . وهو يقدر قيمة الجواهر التى يضمها الكنز بأكثر من نصف مليون من الجنيهات الذهبية »

وعند ذكر ذلك الرقم الضخم حملقنا جميعاً ورحنا نتبادل النظرات . ففى حالة النجاح فى حماية حقوق الآنسة مورستان ستتغير حالتها من النقيض الى النقيض . وتنقلب من مربية تعيش فى كنف الحاجة الى أثرى وارثة فى انجلترا بأسرها

أجل كان من واجب أى صديق مخلص لها أن يبتهج لهذه الأنباء . ولكن يخجلنى أن أقول ان الأنانية استولت على زمام نفسى . وان هذه الأنباء أثقلت قلبي حتى غدا كتلة من الرصاص فى حنايا صدرى . وأخذت أغمغم بألفاظ للتهنئة متقطعة مضطربة . وبعدها غصت فى مقعدى مطأطىء الرأس ، لا أكاد من فرط الغم أسمع شيئاً مما يثرثر به صوت ثاديوس شولتو الأصلع . الذى راح يتحدث عن متاعبه الصحية ويسألنى عن رأيى فى التذاكر الطبية التى كان يحتفظ بها فى محفظة صغيرة من الجلد فى جيبه . ولا أذكر بالضبط ماذا كانت اجاباتى الشاردة فى تلك المناسبة . وأرجو ألا يكون ثاديوس قد وعاها فى ذاكرته .

لأننى لا أضمن دقتهـا . وقد أخبرنى هولمز فيما بعد ان تخبطى فى توصياتى له كانت آية من الآيات . فقد حذرته مثلا من خطر جسيم هو تعاطى أكثر من نقطتين من زيت الخروع رحمة بقلبه . وفى الوقت نفسه نصحت له بكمية كبيرة من الاستركنين كمسهل جيد للأمعاء !

ومهما كان الوضع ، فقد أحسست بارتياح شديد للخلاص من هذه الأسئلة الثقيلة حينما جذب الحوذى الأعنة فوقفت العربة دفعة واحدة اهتززنا لها . ثم قفز الحوذى الى الأرض وفتح الباب

وقال ثاديوس شولتو وهو يتناول يد الآنسة مورستان كى يساعدها على النزول :

— هذه هى بونديتشيرى لودج يا آنسة

وكانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة عند ما وصلنا الى هـذه المرحلة الأخيرة من مغامرتنا الليلية . ووجدنا اننـا فارقنا فى المدينة الضباب الرطب لنجد الهواء العليل والسماء الصافية فى الريف . وكانت الرياح الدافئة تهب من جهة الغرب . والسحب الخفيفة تعبر السماء فتخفى بين الحين والحين القمر الذى كان أحدب



الفصل السابع

مأساة بونديتشرى لودج

كان ضوء القمر الطبيعى يسمح بالرؤية إلى مسافة معقولة . بيد أن ثاديوس شولتو تناول بيده مصباحاً من المصابيح الجانبية للعربة ، كى يتيح لنا إضاءة كافية للطريق

وكانت بونديتشرى لودج تقوم وسط حديقة مترامية . تحيط بها أسوار عالية جداً من الحجر تتوجها شظايا الزجاج . وكان المنفذ الوحيد إلى الداخل عبارة عن باب ضيق من الحديد ، وعلى ذلك الباب توالت طرقات صديقنا على طريقة سعاة البريد . فسمعنا صوتاً غليظاً يصرخ من الداخل :

— من هناك ؟ . . .

— أنا يا ماك موردو . أنت تعرف بالتأكيد طريقة طرقى للباب

فأعقبت ذلك زمجرة وصليل مفاتيح . ثم انفتح الباب فى تثاقل ووقف فى فرجته رجل قصير القامة عميق الصدر ، سقط الضوء الأصفر على وجهه المتجهم وعينيه الثاقبتين اللتين تفيضان بسوء النية وعدم الثقة . ثم قال :

— أهذا أنت يا مستر ثاديوس ؟ ومن هؤلاء الذين معك ؟ إنى لم أتلق أوامر من السيد بخصوص أحد

— أحقاً يا ماك موردو ؟ إنك تدهشنى ! لقد أخبرت شقيقى فى الليلة الماضية أنى سأحضر معى بعض الأصدقاء

— إنه لم يخرج اليوم من حجرته طول النهار يا مستر ثاديوس . ولهذا ليست عندى أوامر منه من أى نوع . وأنت تعلم كم ينبغى أن ألتزم حذافير

الأوامر . فمن الممكن أن أدعك تدخل . أما أصدقاؤك هؤلاء فليس عليهم إلا أن يبقوا حيث هم

وكانت هذه عقبة غير منتظرة . فتلفت ثاديوس شولتو فيما حوله حائراً مرتبكا وقد أسقط فى يده . ثم عاود الكرة قائلا :

— ما أسوأ هذا العمل يا ماك موردو . فمادمت أضمنهم فينبغى أن تكتفى بهذا . وهاك السيدة . وهى لا يمكن أن تنتظر على قارعة الطريق العام فى مثل هذه الساعة المتأخرة يا ماك موردو

فلم يتزحزح البواب عن موقفه وقال :

— آسف جداً يا مستر ثاديوس . فربما كان السادة من أصحابك ، ولكنهم ربما لم يكونوا من أصحاب سيدى . وسيدى يجزل لى العطاء لأقوم بواجبى . ولهذا سألتزم حدود هذا الواجب . لأنى لا أعرف أحداً من أصحابك هؤلاء

فصاح شرلوك هولمز عندئذ فجأة قائلا :

— بل تعرف يا ماك موردو ! ولا أظنك قد نسيتنى . ألا تذكر ذلك الهاوى الذى نازلك ثلاث جولات لدى أليسون فى ليلة تكريمك منذ أربع سنوات ؟

فصاح المصارع المحترف قائلا :

— لست المستر شرلك هولمز ؟ وايم الحق كيف أخطأت معرفتك يا سيدى ؟ ولو أنك بدلا من الوقوف صامتاً هناك تقدمت خطوة وأطبقت بإحدى لكماتك تحت فكى ، لعرفتك من غير حاجة إلى سؤال . إنك وربى شخص أضاع مواهبه ! وكان فى استطاعتك أن تطمح إلى العلا لو انضممت إلى المهنة واحترفت

فقال هولمز ضاحكا :

— ها أنت ترى يا وطسن أننى حين تعوزنى الوسائل للكسب ، أمامى مهنة طيبة تفتح لى ذراعيها . وأنا واثق أن صديقنا لن يتركنا بعد ذلك تحت رحمة البرد فى الخارج

— بل تدخل يا سيدى . ادخل أنت وأصحابك . آسف جداً يا مستر

ثاديوس . فالأوامر التى عندى مشددة جداً . ويجب أن أتأكد بنفسى من أصدقائك قبل أن أدعهم يدخلون . أما الآن وقد تأكدت . . . .

واخترقنا ممشى مرصوفاً بالحصباء بين أحواض مهملة ، إلى كتلة ضخمة من البناء المربع غارقة فى الظلام ، فيما عدا موضع واحد فى الطابق الأعلى كانت تنعكس عليه أشعة القمر

وكان حجم البناء وشكله وجهامته وسكونه المطبق يبعثان البرودة إلى القلب . وحتى ثاديوس شولتو نفسه كان يبدو غير مستريح . فأخذ الفانوس يرتعد فى يده . ولم يلبث أن قال :

— هناك شىء يستعصى على فهمى . لا بد أن هناك خطأ . لأنى أخبرت بوضوح شقيقى برثلوميو أننا سنحضر الليلة . ومع هذا لا أرى نوراً فى نافذته . ولست أدرى ما معنى ذلك

فسأله هولمز قائلا :

— هل من عادته أن يتشدد فى الحراسة بهذه الصورة دائماً ؟

— نعم . فهو يتبع فى ذلك عادات أبى . وكان هو الابن المقرب اليه . وفى بعض الأحيان يخطر لى أن والدى أخبره من أسراره أكثر مما أخبرنى . وهذه النافذة العليا التى ينعكس عليها ضوء القمر هى نافذته . ولكنى لا أعتقد أن بداخلها نوراً . فهذا اللمعان من ضوء القمر وحده

— ليس بداخلها نور . ولكنى أرى وميضاً فى هذه النافذة الصغيرة بجوار الباب

— هذه هى حجرة المشرفة . وهى مسز بيرنستون العجوز . ولا شك أنها ستخبرنا بكل ما هناك . ولكنى أرجو ألا تمانعوا فى البقاء هنا دقيقة أو دقيقتين . لأننا إن ذهبنا بأجمعنا ولم يكن لديها علم سابق بقدومنا ، ربما ذعرت . ولكن صه ! ما هذا ؟

ورفع الفانوس بيده المرتعدة فجعلت دوائر الضوء تهتز من حولنا . فتشبثت الآنسة مورستان بمعصمى . ووقفنا كلنا واجفى القلب وقد أرهفنا آذاننا . فوصل إلينا من البيت الكبير المعتم فى سكون الليل صوت ليس أبعث منه للوجوم والفزع . صوت صراخ امرأة مروعة . فقال شولتو :

— هذا صوت مسز برنستون . فهى المرأة الوحيدة فى البيت . انتظرونى هنا . سوف أعود بعد لحظة واحدة

وأسرع الى الباب فطرقه على طريقته الخاصة . واستطعنا أن نرى امرأة طويلة القامة تفتح له ويبدو عليها الابتهاج الشديد لمجرد وقوع نظرها عليه ، ثم سمعناها تقول له بصوت حاد اللهجة :

— آه يامستر ثاديوس ياسيدى . كم أنا مسرورة جداً لقدومك ! ما أسعدنى بحضورك الآن ياسيدى مستر ثاديوس !

وسمعناها تكرر ابتهاجها الى أن أغلق الباب وخفت صوتها رويداً حتى اختفى . وكان مرشدنا قد ترك معنا الفانوس ، فرفعه هولمز وحركه ببطء حولنا ليستطلع البيت وأكوام التراب والقاذورات التى تملأ أحواض الحديقة ، ووقفت أنا والآنسة مورستان بمعزل وقد وضعت يدها فى يدى

حقاً أن الحب شىء عجيب دقيق لطيف المدخل . فنحن الاثنان لم ير أحدنا الآخر قبل اليوم . ولم يحدث أننا تبادلنا كلمة عاطفية بل ولا نظرة . ومع هذا حين حلت ساعة الاضطراب واليأس هذه ، سعت يد كل منا من تلقاء نفسها نحو يد الآخر

وكم طال تفكيرى فى هذه الظاهرة بعد ذلك . أما فى حينها فقد بدت لى السلوك الطبيعى الوحيد من جانبى . وقد أخبرتنى هى بعد ذلك أنها أقدمت على هذا التصرف من غير تفكير . بل بوحى غريزة فيها دفعتها أن تلتمس عندى الراحه والحماية

وهكذا وقفنا نحن الاثنان وقد تشابكت أيدينا مثل طفلين . وكان السلام والأمن يملآن قلبينا لمجرد هذا التشابك ، بالرغم من كل الاشياء الحالكة التى كانت تحيط بنا . الى أن قالت وهى تنظر حولها :

— ياله من مكان غريب !

— يبدو أن جميع الأكوام والخنادق التى فى انجلترا جمعت هنا . ولم يحدث فى أسفارى كلها ان رأيت منظراً كهذا الا بالقرب من البلارات ، حيث يحفر المعدنون للتنقيب عن المناجم

فقال هولمز معقباً على كلامى :

— وهذه الحفر خلقتها أسباب مماثلة لتلك . فما تراه هو من آثار البحث عن الكنز الغامض . ولا تنس أنهم قضوا ست سنوات يبحثون بجد واجتهاد فى كل شبر من الأرض

وفى هذه اللحظة انفجر باب البيت مفتوحاً على سعته . وخرج ثاديوس شولتو يجرى نحونا وقد بسط يديه أمامه وارتسم الرعب فى عينيه وصرخ فينا بأعلى صوته :

— لقد حدث شىء لبرثلوميو ! انى خائف ! أعصابى لا تتحمل ذلك

والحقيقة أنه كان نصف مجنون من الرعب . وملامحه المختلجة تطل من اطار الفراء كأنها لوحة تصور اليأس والتوسل رسمها فنان لطفل لا حيلة له عند ظهور أشباح مفزعة . فقال هولمز بطريقته الحازمة :

— هيا بنا ندخل البيت ونرى بأنفسنا ما هناك

فتضرع اليه ثاديوس شولتو قائلا :

— أجل . افعل بربك . فأنا لا أجد فى نفسى القوة على التوجيه أو التصرف فى مثل هذا الموقف

ولم يكن هناك ما يدعو لاضطلاعه بالقيادة . فلا لزوم لذلك حيث يوجد شرلوك هولمز الذى لاتخونه أعصابه مطلقاً ويبدو حضور بديهته على أتم صورة فى ساعات النزع

وفعلا تقدمنا شرلوك هولمز حاملا الفانوس الى الداخل



الفصل الثامن

التوأم المقتول

تبعناه جميعاً الى حجرة المشرفة على الدار التى كانت على الجناح الأيسر من الممر . وكانت المرأة العجوز تتمشى وفى عينيها نظرة فزع وقلق ، تحرك أصابعها بعصبية . فلما رأت الآنسة مورستان بدا أن منظرها ألهمها شيئاً من الهدوء . فصاحت فى نحيب هستيرى :

— بارك الله فى وجهك العذب الهادىء . كم استرحت لمرآه ! إنى والله قد امتحنت اليوم بما فيه الكفاية

فربتت الآنسة مورستان على يدها النحيلة المشققة من العمل وراحت تسرى عنها بألفاظ مما يتقنه النساء ، فعاد الاحمرار الى خديها الشاحبين . وأخذت تستجمع قواها لتفسر لنا الموقف

— حبس السيد نفسه فى حجرته هذا اليوم ورفض أن يجيبنى كلما طرقت عليه الباب . فظللت طول النهار أنتظر أن يخرج من تلقاء نفسه . لأن من عادته فى كثير من الأحيان أن يحب العزلة . ولكن منذ ساعة خشيت أن يكون قد حدث له مكروه . فصعدت ونظرت من ثقب المفتاح . وأنت يامستر ثاديوس يجب أن تصعد أيضاً وتنظر بنفسك . فقد رأيت المستر برثلوميو شولتو فى أحوال الفرح وأحوال الحزن مدة عشر سنوات . ولكنى لم أره يوماً من الأيام على هذه الصورة التى بدت لى فى هذه الليلة من ثقب المفتاح

فتناول شرلوك هولمز المصباح وسبقنا ، لأن ثاديوس شولتو كانت أسنانه تصطك داخل الفراء . وكان يرتجف حتى انى اضطررت أن أسنده من ذراعه ونحن نصعد السلم ، لاضطراب ركبتيه

ومرتين أثناء الصعود أخرج هولمز عدسته المكبرة من جيبه ليفحص آثاراً من التراب لم تلفت نظرى فوق البساط البنى الذى يغطى درجات السلم. وكان هذا البساط مصنوعاً من ألياف جوز الهند . لهذا كان شرلوك هولمز يصعد ببطء شديد درجة درجة ، وقد خفض المصباح وراح يلقى نظراته الفاحصة على اليمين واليسار . أما الآنسة مورستان فبقيت بجوار مشرفة الدار المذعورة

وانتهى الطابق الثالث من السلالم الى ممر طويل بعض الطول ، يشغل جداره الأيمن رسم زخرفى على سجادة هندية كبيرة . أما الجدار الأيسر فبه ثلاثة أبواب

وجعل هولمز يتقدم فى ذلك الممر على طريقته المنهجية البطيئة . ونحن فى أعقابه تتلاعب ظلالنا الطويلة القاتمة على أرض الممر . وكان الباب الثالث هو الباب الذى ننشده . فطرقه هولمز ولكنه لم يتلق جواباً . فحرك القبض وحاول أن يفتح الباب فاذا به مغلق من الداخل بمزلاج عريض قوي . ولما كان المفتاح من الداخل فى وضع لايغلق الثقب كل الاغلاق فقد انحنى شرلوك هولمز فوقه . ولم يلبث ان انتصب واقفاً وهو يشهق شهقة حادة . وقال لى وقد ظهر عليه من الانفعال ما لم أشهده على وجهه مطلقا من قبل :

— فى هذه المسألة عنصر شيطانى ياوطسن . انظر وقل لى رأيك . .

فانحنيت فوق الثقب ولم ألبث أن تراجعت مذعوراً . فقد كان ضوء القمر يتدفق فى الحجرة فيضيؤها . وهناك رأيت وجها يحدق فى عينى مباشرة ، وكأنه معلق فى الفضاء ، لأن كل ما حوله كان ظلاما . وكان هذا الوجه هو وجه رفيقنا ثاديوس بلحمه ودمه ! هذه الجبهة اللامعة والجمجمة العالية العارية . وهذا السياج المستدير من الشعر الأحمر . وهذه الملامح الشاحبة

وكل الفرق ان الوجه الذى رأيته فى الداخل كان يفتر عن ابتسامة فظيعة غير طبيعية كانت تبدو فى ضوء القمر وسكون الحجرة الشامل أثقل على الأعصاب من كل تقطيب أو عبوس

وكان هذا الوجه يشبه وجه صديقنا الى درجة انى نظرت ورائى كى أتأكد

من ان ثاديوس مازال معنا فعلا . ثم تذكرت انه أخبرنا منذ البداية ان شقيقه كان توأمه . وقلت لهولمز :

— هذا فظيع ! ماذا يجب أن نصنع ؟

— يجب أن نحطم الباب ...

ثم ضغط بكل ثقله على القفل . فصر الباب ، ولكنه لم يذعن . فدفعناه كلانا بكل قوتنا ؛ وفى هذه المرة انفتح على مصراعيه بطرقعة . فوجدنا أنفسنا فى داخل حجرة برثلوميو شولتو

ويبدو ان الحجرة كانت معدة لتكون معملا كيماوياً . فهناك خط مزدوج من القنانى المدرجة بجوار الحائط المقابل للباب . أما المائدة فكانت مزودة بمصابيح بونزن وأنابيب الاختبار . وفى أركان الحجرة قشاشيات بها حوامض . ويبدو ان واحدة من هذه القشاشيات كانت مكسورة . لأن سائلا داكناً كان يتسرب منها . وكان الهواء مثقلا برائحة نفاذة أشبه برائحة القطران . وشاهدنا أيضاً سلماً خشبياً متحركا فى أحد الجوانب ومن حوله كومات من الجص والطوب . ومن فوق السلم فى السقف فتحة تسمح بعبور رجل منها . وتحت السلم حبل طويل ملقى بغير عناية

وبجوار المائدة ، فى مقعد ذى ذراعين من الخشب ، كان رب الدار جالساً وقد مال رأسه فوق كتفه الأيسر ، وعلى وجهه تلك الابتسامة الجامدة المتكلفة . ولمسناه فوجدناه متخشباً بارداً مما يدل على انه مات ولا شك منذ ساعات . وخيل إلىّ ان التشنج لا يشمل ملامحه فقط ، بل أطرافه كلها كانت ملتوية . وبالقرب من يده فوق المائدة آلة غريبة عبارة عن عصا من الخشب محببة . لها رأس من الحجر كأنها مطرقة . وبجانبها ورقة ممزقة وقد خطت فوقها كلمات . فنظر هولمز فى تلك الورقة ثم قدمها إلىّ وهو يقول وقد ارتفع حاجباه بطريقة ذات مغزى :

— أرأيت ؟

وفى ضوء المصباح قرأت وأنا أرتجف رعباً هذه العبارة :

— الرقم ٤

ثم سألته بعد لحظة وقد زاغت عيناى :

— بحق الله ما معنى هذا كله ؟

فقال هولمز وهو ينحنى فوق القتيل :

— معناه ان الرجل قتل . مات قتيلا . آه ! هذا ماتوقعته . انظر !

وأشار الى ما بدا لى كأنه شوكة داكنة طويلة مرشوقة فى الجلد فوق أذن القتيل مباشرة فقلت له :

— إنها تبدو شوكة نبات

— هى فعلا شوكة . ولك أن تنتزعها . ولكن بحذر . فهى مسمومة

فتناولتها بين إصبعى . فخرجت من الجلد بسهولة ولم تترك فى موضعها أثراً سوى نقطة صغيرة جداً من الدم تدل على موضع الشكة . فقلت :

— هذه ألغاز تبدو فى نظرى غير قابلة للحل . إنها تزداد تعقيداً بدلا من أن تزداد وضوحاً

— بالعكس . إنها تتضح فى كل لحظة أكثر من سابقتها . وكل ما أحتاج اليه هو بعض الحلقات الناقصة كى أجعل القضية متماسكة تماماً

وكان قد نسى تقريباً وجود رفيقنا منذ أن دخلنا الحجرة . فظل الرجل واقفاً فى الباب صورة مجسمة للرعب ، يفرك يديه ويئن . وفجأة انفجر يصيح بصوت غاضب :

— لقد اختفى الكنز ! سرقوا منه الكنز ! هذا هو الثقب الذى دلى منه الصندوق . فقد ساعدته بنفسى فى هذا ! كنت أنا آخر انسان رآه ! تركته هنا الليلة الماضية وسمعته بنفسى يقفل الباب من الداخل وأنا أهبط السلالم

— فى أى ساعة كان ذلك ؟

— فى الساعة العاشرة . وها هو الآن مات . وسيدعى البوليس . وستحيط بى الريبة وأتهم بأن لى اصبعاً فى الأمر . نعم أنا واثق انهم سيتهموننى . لكنكما لا تصدقان ذلك ؟ هل من المعقول اننى كنت آتى بكم الى هنا لو اننى كنت القاتل ؟ يا إلهى ! إنى سأجن !

وجعل يهز ذراعيه ويضرب الأرض بقدمه فى فزع . فقال له هولمز وهو يضع يده على كتفه بكل رفق :

— لا مبرر مطلقاً لهذه المخاوف يا مستر شولتو

— أنا واثق انهم سيتهموننى مع ذلك . قلبى يحدثنى انهم سيفعلونها

— لا تخف . ثق بكلامى . واسمع نصيحتى مهما كلفك ذلك

— نصيحتك ؟ ماذا تعنى ؟

— اركب العربة واذهب الى مركز البوليس وبلغ عن وقوع هذه الجناية

— أذهب بنفسى الى البوليس ؟

— طبعاً . هذه هى الطريقة لنفى الشبهة عنك . وعليك أن تعرض عليهم هناك استعدادك لمساعدتهم من جميع الوجوه فى كشف غوامض القضية

— هل أذهب وحدى ؟ ألا يأتى منكما أحد معى ؟

— كلا . سننتظر نحن عودتك هنا

فأذعن الرجل المسكين وهو نصف مبهوت . وسمعنا وقع أقدامه المتعثرة وهو يهبط السلالم فى الظلام

وما أن اختفى حتى فرك هولمز يديه ولمعت عيناه بالنشاط والابتهاج بالعمل الذى سيتحدى مواهبه . ثم قال لى :

— والآن يا وطسن أمامنا نصف ساعة نقضيها بمفردنا هنا . فيجب ألا نضيعها هباء بل نحسن استخدامها



الفصل التاسع

استعراض

قاطعته بقولى :

— قل لى أولا . إنك منذ قليل قلت إن القضية متماسكة تقريباً

— نعم ، إنها كاملة فى ذهنى . ولكن ينبغى ألا نترك شيئاً من غير مراجعة فمهما كانت تبدو بسيطة الآن ، ربما كان هناك عنصر خفى لم نفطن إليه

— أتقول بسيطة ؟

فظهر الابتسام على محياه كما يبتسم المعلم المحنك لسذاجة تلاميذه الصغار وقال لى :

— بالتأكيد . ولكن اجلس أولا فى هذا الركن حتى لا تعقد آثار أقدامك المسائل . والآن هيا الى العمل !!

— العمل ؟ ...

— نعم يجب أن نستعرض أولا الخطوات كلها . والخطوة الأولى هى كيف دخل هؤلاء الناس وكيف خرجوا ؟ فالباب لم يفتح منذ الليلة الماضية . فماذا عن هذه النافذة ؟

وحمل المصباح الى النافذة وراح يتحدث بصوت مرتفع ذاكراً ملاحظاته وكأنه يكلم نفسه

— النافذة متينة . ومغلقة . ولا توجد مفصلات فى الجوانب . ولا أنابيب مياه بالقرب منها . والسقف بعيد عنها جداً . ومع هذا فقد صعد رجل الى النافذة . إن المطر سقط ليلة أمس . وهذه طبعة قدم على حافة النافذة من الخارج . وهذه علامة مستديرة من الطين . وهذه علامة أخرى على أرض

الغرفة . وعلامة ثالثة بجوار المائدة . انظر هنا يا وطسن . ان هذا ولا شك استعراض رائع !

. وقمت ونظرت الى تلك الدوائر الجيدة التحديد من الطين وقلت :

— ولكن هذه ليست آثار أقدام

— هذه آثار شيء أثمن بالنسبة لنا من آثار الأقدام بكثير . هذا طابع عكاز من الخشب . ويمكنك أن ترى على حرف النافذة طابع حذاء ضخم له كعب عريض من الحديد . وبجواره طابع القدم الخشبية

— إنه إذن الرجل ذو الساق الخشبية

— هو ذلك . ولكن كان معه أحد آخر . حليف قدير وبارع . أتستطيع يا دكتور أن تتسلق هذا الجدار ؟

فنظرت من النافذة المفتوحة . وكان القمر ما زال يشرق على زاوية البيت . فوجدت أننا على ارتفاع ستين قدماً من الأرض . ولم تقع عيني فى الجدار الأملس على موضع للقدم . فقلت :

— هذا مستحيل تماماً

— وهو مستحيل من غير معاونة من شخص آخر . ولكن افرض أنه كان معك صديق هنا فى هذه الحجرة وأدلى لك هذا الحبل الغليظ الذى أراه ملقى هناك فى الركن بعد أن ثبت طرفه فى هذا الخطاف الكبير الموجود فى الحائط . عندئذ أعتقد أنك إن كنت رجلا نشطاً جريئاً ، ستستطيع أن تتسلق الجدار أنت وساقك الخشبية . وفى استطاعتك أيضاً بالطبع أن تنزل بنفس الطريقة . وبعد ذلك يسحب صديقك الحبل ، ويفك رباطه من الخطاف ، ثم يغلق النافذة من الداخل بالرتاج كأن أحداً لم يدخل منها ولم يخرج

— ولكن هذا الصديق ، كيف يخرج بعد أن أغلق النافذة ؟

— يخرج طبعاً من المنفذ الذى دخل منه . ويجدر بهذه المناسبة أن نفحص الحبل جيداً

ثم تناول الحبل من الركن وراح يفحصه بعدسته

— ها ها ! إن صديقنا ذا الساق الخشبية ، ولو أنه متسلق بارع للحبال إلا أنه ليس بحاراً محترفاً

— من أين عرفت هذا يا هولمز ؟

— ان عدستى دلتنى على أن يديه لم يمت جلدهما كعادة البحارة المحترفين لكثرة ما تسلقوا الحبال . فقد تسلخ من جلد يديه ما لصق بألياف الحبل . وهناك نقط من الدم واضحة ولا سيما قرب نهاية الحبل . مما يدل على أنه انزلق نازلا بسرعة كبيرة سلخت الكثير من بشرة يده

— كل هذا جميل . ولكن المسألة تزداد فى ذهنى غموضاً . سألتك كيف خرج الشريك ما لم يخرج من النافذة . فقلت لى ....

— من حيث دخل فى البداية طبعاً

— ولكن كيف دخل فى البداية إن لم يكن دخل من النافذة . مع علمنا أن الباب مغلق من الداخل ؟

فظهر على شرلوك هولمز شيء من التفكير ثم قال ببطء :

— نعم . هذا الحليف ! فى موضوعه الكثير مما يثير الاهتمام . فعنصره هو الذى يخرج بالقضية من النطاق الشائع . ويخيل إلى أن هذا الشريك سيسجل مجالا مبتكراً فى تاريخ الجرائم فى هذه البلاد . وإن كان شبيهاً بما يحدث فى الهند بين الحين والحين . وبما يحدث فى سنيجامبيا

— ربما . ولكن كيف دخل والباب مقفول والنافذة لا يمكن الوصول إليها من غير معاونة من داخل الحجرة ؟ أمن المدخنة ؟

— ان فتحتها صغيرة جداً . فقد خطر لى هذا الخاطر من قبل

— كيف إذن دخل ؟

— يزعجنى منك أنك لا تريد أن تطبق توصياتى بدقة رغم التكرار . كم من مرة قلت لك أنك عندما تستبعد جميع المستحيلات فأى افتراض يتبقى بعد ذلك مهما كان بعيد الاحتمال لا بد أن يكون هو الحقيقة ؟

— هذه فعلا قاعدتك . ولكن كيف نطبقها هنا ؟

— نحن نعلم أنه لم يدخل من الباب . ولا من النافذة . ولا من المدخنة . ونحن نعلم أيضاً أنه من المستحيل أن يكون مختفياً فى الحجرة من قبل ، لأنه لا يوجد بها أى مكان صالح للاختفاء . فمن أين يمكن أن يكون أتى اذن ؟

وعندئذ أشرقت الحقيقة فى ذهنى وصحت :

— من الثقب الذى فى السقف ؟

— مرحى ! طبعاً هذا هو الذى حدث حتما . ولو أنك تكرمت فحملت لى المصباح لمددنا إبحاثنا الى الحجرة العليا . وهى الحجرة السرية التى وجد بها الكنز . وسأصعد أنا أمامك

وصعد السلم الخشبى . ثم أمسك باحدى دعامات السقف بكلتا يديه ثم رفع نفسه برشاقته المعهودة الى داخل تلك (الصندرة) . ورقد على وجهه ثم مد يده فتناول منى المصباح ريثما تعلقت أنا كما فعل وتبعته

وكانت الحجرة التى وجدنا نفسينا فيها طولها نحو عشرة أقدام وعرضها نحو ست . وجدرانها من عروق الخشب المزدوجة . وبينها طبقة من الجص . لهذا كنا نسير على أرضها فى حذر متحرين الوقوف على عروق الخشب . أما سقفها فكان هو السقف الأصلى المنحدر للبيت . وليس فى هذه (الصندرة) أثاث من أى نوع . وتراب السنين المتراكم يكون طبقة كثيفة على الأرض كأنها البساط

ووضع شرلوك هولمز يده على قطعة من الحائط المسائل الذى هو سقف البيت ثم قال :

— هاقد وصلنا . فهذا كما ترى منفذ سرى يؤدى الى السقف من الخارج وهذا هو الطريق الذى دخل منه الجانى رقم ١ . فلنبحث لنرى هل يمكن أن نجد آثاراً أخرى تدل على شخصيته

وقرب المصباح من الأرض . وما أن فعل ذلك حتى رأيته للمرة الثانية فى هذه الليلة يجفل وقد بدت الدهشة العميقة على وجهه . أما أنا فقد شعرت بالبرودة تسرى فى جلدى تحت ثيابى . فقد كانت الأرض التى يغطيها بساط التراب السميك مرصعة بآثار أقدام عارية . واضحة محددة كاملة فى تفاصيلها . ولكنها لا تكاد تبلغ نصف حجم قدم الرجل العادى . لهذا قلت وأنا أشعر بقشعريرة :

— يا هولمز . إن طفلا هو الذى اقترف هذه الجريمة البشعة !

ورأيته بعد لحظة يسترد رباطة جأشه ويقول :

— هذا ما هزنى لأول وهلة . ثم اهتديت الى أن ذلك طبيعى . ولولا

أن ذاكرتى خانتنى لكان ينبغى أن أتوقع ذلك منذ البداية . لم يعد هنا من جديد نتعلمه فهيا بنا ننزل

ولما وصلنا الى الغرفة السفلى كما كنا قلت له بلهفة :

— ما هى نظريتك إذن بخصوص آثار الأقدام هذه ؟

— يا عزيزى وطسن . حاول أن تقوم ببعض التحليل بنفسك

ثم استولى عليه شيء من نفاد الصبر وهو يستطرد :

— انك تعرف منهاجى . فطبقه . وسوف يساعدنى كثيراً أن نقارن نتائجك التى تصل إليها أنت بنتائجى التى وصلت إليها

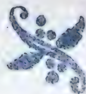
— لا أستطيع أن أتصور شيئاً يمكن أن يغطى جميع الوقائع

فهز كتفيه وقال بغير اكتراث :

— سيتضح لك كل شيء عما قريب . وأعتقد أنه لا يوجد هنا شيء آخر على قسط من الأهمية . ومع هذا سأنظر بصفة احتياطية

ثم أخرج عدسته . ومقياساً دقيقاً . وأسرع يذرع أرض الحجرة زاحفاً على ركبتيه ، يقيس ، ويقارن ، ويفحص . وأنفه الطويل لا يبعد إلا قيد أصابع قليلة من خشب الأرض ، وعيناه اللامعتان الدقيقتان كأنهما عينا طائر

وكانت حركاته من السرعة والصمت والمرونة حتى أنها أشبه شيء بحركات كلب الصيد العريق وهو يقتفى الرائحة . ومع هذا لم أستطع أن أغالب نفسى من التفكير فى أن هذا العبقرى كان من الممكن أن يكون خطراً بشرياً مروعاً لو أنه حول طاقته العقلية ضد القانون بدلا من أن يوجهها لخدمته وحمايته



الفصل العاشر

الوسيلة الجهنمية

كنت غارقاً فى أفكارى هذه وتصورى له أغرب مجرم فى التاريخ الحديث ، حين نبهنى صوته وهو يزمجر بنغمة تدل على الحبور الشديد :

— إننا ولا شك مجدودو الطالع هذه المرة . ولم يبق أمامنا كبير عناء . فان صاحبنا رقم (١) شاء له سوء الحظ أن تطأ قدمه سائل الكريوزوت . وتستطيع أن تتبين حافة قدمه الصغيرة إلى جانب هذه الزجاجة المكسورة التى يسيل منها الكريوزوت

— وماذا فى ذلك من الحظ الحسن لنا ؟

— طبعاً . معنى هذا أننا وضعنا يدنا عليه . أليس فى هذا منتهى حسن الحظ ؟ فأنا أعرف كلباً يستطيع أن يقتفى هذه الرائحة إلى آخر الدنيا . فهى رائحة نفاذة جداً . ولكن ماهذه الأصوات ؟ إنهم أصدقاؤنا الذين يمثلون العدالة الرسمية !

وكانت فعلا هناك خطوات ثقيلة وأصوات مرتفعة تصل الينا من أسفل الدار . ثم سمعنا باب البهو الخارجى يقفل بدوىّ كبير ، فهز هولمز رأسه وقال :

— قبل أن يصعدوا ، أسرع بوضع يدك على ذراع هذا المسكين ، ثم على ساقه . بماذا تشعر ؟

— إن عضلاته صلبة كأنها ألواح من الخشب

— نعم . إنه فى أقصى درجات التخشب . وهو تخشب يزيد بكثير على التخشب الرمى المألوف فى جميع الموتى . فاذا قارنا ذلك بهذا التخشب الذى

فى الوجه ، وهذه الابتسامة الأبوقراطية ، ماذا تستنتج ؟

— إن الموت حدث من سم نباتى شبيه بالاستركنين . يؤدى إلى الاصابة بالتيتانوس فوراً

— هذه هى الفكرة التى خطرت لى عندما وقع نظرى لأول وهلة على عضلات وجهه المشدودة . فلما بحثت عن الوسيلة التى بها تسلل السم الجهنمى إلى تكوينه ، اكتشفت كما رأيت تلك الشوكة التي غرست أو قذفت بقوة غير كبيرة إلى جلد دماغه

— هذا صحيح . ولكن كيف أصيب بها ؟

— لو نظرت فى الموضع الذى انغرست فيه تلك الشوكة لوجدته يقابل الثقب الذى فى السقف حينما يكون القتيل منتصبا فى جلسته . والآن أرجو أن تفحص هذه الشوكة بسرعة

فتناولتها وعرضتها على ضوء الفانوس فوجدتها طويلة حادة سوداء وفوق رأسها نقطة صغيرة من مادة صمغية جفت عليها . أما الجهة الأخرى الغليظة فكانت مستوية بفعل سكين . وسألنى هولمز :

— هل هذه شوكة نبات انجليزى ؟

— كلا . إنها بالتأكيد ليست انجليزية

— من كل هذه العناصر ينبغى أن نصل إلى تحديد لمصدر الجريمة . ولكن دع هذا الآن ، فقد حضر الرسميون ، فيجب على غير الرسميين أن يتراجعوا ليتركوا لهم الصف الأول

وفى هذه اللحظة اقتربت الخطوات الثقيلة الرنانة منا ، ثم دخل رجل بدين جداً يرتدى حلة رمادية ، أحمر الوجه له عينان صغيرتان جداً ينبعث منهما بريق من تحت حاجبين كثيفين . وكان يتبعه عن كثب مفتش مباحث فى كسوته الرسمية ، ومن ورائهما ثاديوس شولتو الذى لم يزل يرتعد

وصاح الرجل البدين بصوت أجش :

— يالها من قضية ! قضية مليحة ! ولكن من كل هؤلاء ؟ وربى إن البيت يبدو مكتظا كوجار الأرانب !

وعندئذ قال هولمز بكل هدوء :

— الخالك ينبغى أن تتذكرنى يا مستر آثلنى جونس

— طبعا طبعا أتذكرك . أنت مستر شرلوك هولمز . الرجل النظرى . . كيف لا أتذكرك ؟ إنى لن أنسى ماحييت كيف كنت تحاضرنا جميعا عن الأسباب والنتائج فى قضية مجوهرات بيشوبيجيت . ولا أنكر أنك وجهتنا فى الطريق السليم . ولكنى أحسبك لا تتأخر عن الاعتراف الآن بأن ذلك جاء خبط عشواء ، بمحض المصادفة لا عن إدراك سديد

— إنها بالعكس كانت نتيجة استنتاج غاية فى البساطة

— لا ينبغى يا رجل أن تخجل من الاعتراف بالحق ! ولكن لندع هذا الآن . ماهذه القضية البشعة ؟ إنها قضية وقائع جامدة ، لا موضع فيها للنظريات . ومن محاسن المصادفة أننى كنت فى نوروود بصدد قضية أخرى ! وبينما أنا فى مركز البوليس وصل التبليغ . ماسبب موت الرجل فى رأيك ؟

فأجابه هولمز بجفاء قائلا :

— هذه مسألة لا محل فيها لنظرياتى

— طبعا طبعا ! ومع هذا لا نستطيع أن ننكر أنك تصيب كبد الحقيقة فى بعض الأحيان . ويحى ! كان الباب مقفولا فما سمعت . ومجوهرات قيمتها أكثر من نصف مليون ذهبا مفقودة . وكيف كانت النافذة ؟

— مقفولة من الداخل . ولكن هناك آثار أقدام على حافتها من الخارج كما تستطيع أن ترى بنفسك

— وماذا فى ذلك ؟ مادامت النافذة مقفلة فمن الجائز أن آثار الأقدام لا علاقة لها بالموضوع . هذا هو المنطق السليم . ومن الجائز جداً أن يكون الرجل مات بنوبة قلبية من غير تدخل أحد

— جائز طبعا . ولكن هذا لا يفسر اختفاء الجواهر

— هاها ! عندى نظرية ! لا تنظر هكذا . فهذه الومضات تخطر لى بين حين وحين . اخرج من فضلك يا جاويش وأنت أيضا يا مستر شولتو . أما صديقك دكتور وطسن ففى استطاعته أن يبقى

وخرج المفتش ، كما خرج ثاديوس شولتو . وبعد أن أغلقا الباب وراءهما قال :

— ما رأيك شخصيا يا هولمز ؟ إن شولتو باعترافه كان مع أخيه الليلة الماضية . فماذا لو أن الأخ مات بنوبة . فانتهز شولتو الفرصة واختفى بالكنز ؟ ما رأيك الصريح فى هذا التفسير ؟

— تفسير عال العال ! وتمامه أن القتيل كلف خاطره بعد هرب شقيقه بالكنز وقام فأغلق الباب من الداخل ثم عاد واستأنف رقدته الأخيرة

— آه ! هذا هو الحازوق ! فلنحاول أن نطبق المنطق المعقول على المسألة . إن ثاديوس شولتو كان مع أخيه . وحدثت بينهما مشادة باعترافه . والأخ مات والجواهر اختفت . هذا أيضاً مقطوع به . ولا أحد رأى الأخ منذ تركه ثاديوس . وفراشه يدل على أنه لم يستعمل تلك الليلة . وثاديوس منظره يدل على منتهى الارتباك العقلى . وهذا يجعل الشباك تحدق بثاديوس

— هناك وقائع لم تصل الى علمك بعد . فهناك شظية صغيرة من الخشب أعتقد كل الاعتقاد أنها مسمومة . وقد وجدناها مرشوقة فى دماغ القتيل وتستطيع أن ترى موضعها بنفسك . ووجدنا أيضاً هذه الورقة وعليها هذه الكتابة فوق المائدة ، والى جانبها هذه الآلة ذات القبض الصخرى الغريبة الشكل ، فكيف توفق بين هذه الأشياء وبين نظريتك ؟

— انها تعززها تمام التعزيز ! فالبيت مكتظ بالطرف الهندية . وهذه الأداة كانت مع ثاديوس . واذا كانت هذه الشظية مسمومة فليس علينا سوى أن نقول إن ثاديوس ربما استخدمها فى قتل أخيه . وأما هذه الورقة فهى مكتوبة لذر الرماد فى العيون كما يقولون . وكل المشكلة التى أمامى الآن هى كيف خرج والباب والنافذة مقفولان من الداخل ؟

وجعل الرجل البدين ينظر فيما حوله بسرعة ، وبحكم المران لفتت نظره الفجوة التى فى السقف فأطلق صيحة تهلل . وبنشاط يستغرب ممن فى حجمه راح يصعد السلالم قفزاً ثم دخل من الفجوة . وبعد قليل سمعنا صوت ابتهاج دلنا على أنه اكتشف الباب المسحور فى السقف . فهز هولمز كتفيه بازدراء وقال :

— إنه يستطيع العثور على شىء . وتعتريه نوبات من الذكاء !

وبعد لحظة رأينا اثلنى جونس يهبط وهو يقول :

— أرأيت ؟ إن الوقائع الجامدة خير من النظريات بعد كل حساب . لقد تأيدت وجهة نظرى فى القضية . فهناك باب مسحور يؤدى الى السقف . وقد وجدته موارباً . وهذا يدل . . . . .

— مهلا ! أنا الذى فتحته

— حقاً ؟ هل لاحظته ؟ على كل حال هذا يدلنا على الطريق الذى سلكه صديقنا فى الخروج بالكنز . أيها المفتش !

وجاء الرد من الردهة :

— أفندم !

— اطلب من المستر شولتو أن يدخل

وما أن دخل المسكين ثاديوس حتى بادره بصوته الأجش :

— إن واجبى يامستر شولتو يحتم على أن أبلغك أن أى عبارة تتفوه بها سوف تقيد ضدك . فأنا أقبض عليك باسم الملكة وأتهمك بقتل أخيك

فصاح الرجل الأصلع المسكين وقد بسط يديه وراح ينقل بصره بيننا :

— ألم أقل لكما ؟

فقال له هولمز بكل ثقة :

— لا تنزعج يامستر شولتو . فاننى أتعهد بإبراء ساحتك من هذه التهمة

فقال أثلنى جونس بحدة :

— لاتسرف فى الوعود ياجناب الفيلسوف الجنائى ! فقد تجد هذه المهمة أصعب مما يخيل اليك . فلا تمنه بالأحلام الكذاب

— اننى سوف لا أبرئه فحسب يامستر جونس . بل سأزيد على ذلك أن أقدم اليك هدية مجانية هى اسم ووصف أحد الرجلين اللذين كانا هنا فى الليلة الماضية . فعندى من الأسباب القوية ما يحملنى على الاعتقاد أن هذا الاسم هو جوناثان سمول : وهو رجل قليل التعليم . قصير القامة . جم النشاط . ساقه اليمنى مقطوعة . وله ساق خشبية بلى منها جزء الى جهة الداخل . أما حذاؤه الأيسر فضخم غليظ له مقدم مربع . ويحيط بكعبه الحديد . وهو فى أواسط العمر . لوحته الشمس كثيراً وهو من السجناء السابقين . وأحسب أن هذه

الأوصاف ستساعدك ، إذا أضفت اليها حقيقة أخرى ، هى أن جانباً كبيراً من جلد باطن يده مسلوخ . أما الرجل الآخر . . . .

— رجل آخر ؟

وكان صوت أثلنى جونس وهو يقاطعه بهذا الاستفهام يدل على الدهشة البالغة لما عليه أوصاف هولمز من التحديد . بيد أن هولمز استطرد :

— الرجل الآخر غريب الشكل حقاً . وفى مأمولى قبل مضى وقت طويل أن أتمكن من تقديمك لكليهما يا جونس !

ثم دار هولمز على عقبيه وقال لى :

— أريدك فى كلمة على انفراد يا وطسن

ولما انفردنا عند رأس السلم فى الخارج قال لى :

— إن هذا الاتجاه غير المتوقع فى القضية جعلنا ننسى الهدف الأصلى من رحلتنا . فنحن لم نحضر هنا لتحقيق قضية قتل

— هذا ما كنت أفكر فيه فعلا ، فليس من المناسب أن تبقى الآنسة مورستان فى هذا البيت المشئوم

— كلا بالطبع . فيجب أن تصحبها الى بيتها . وهى تقيم لدى مسز سيسل فورستر فى كامبرويل السفلى . فالمسافة ليست بعيدة . وسوف أنتظر عودتك هنا . هذا إن أحببت أن تعود . أم تراك متعباً ؟

— لست متعباً على الاطلاق . ولا أظننى أستطيع أن أستريح إلا بعد أن أعرف جلية هذا الموضوع البشع . لقد خبرت من الحياة بلاياها . ولكن أقسم لك بشرفى أن هذه الفاجآت الغريبة المتلاحقة التى اتفقت لنا الليلة قد هزت أعصابى هزا كاملا . ولهذا أحب أن أصل الى جلاء غوامضها معك مادمت قد أوغلت فى مجاهلها الى هذا الحد

— ان حضورك سيكون ذا فائدة جليلة لى . وسنقوم بالعمل فى هذه القضية مستقلين . وسنترك هذا المخلوق جونس يتخبط ويبنى قصوره الواهية على الرمال كما يشاء . فأرجوك بعد أن تفرغ من توصيل الآنسة مورستان أن تتوجه الى رقم ٣ فى حارة بنتشين ، فى حى لامبث . والبيت الثالث على يدك

اليمنى هو بيت رجل يحترف تحنيط الطيور ، واسم هذا الرجل شيرمان ، وسترى فى واجهة البيت أرنباً صغيراً محنطاً فى منقار صقر محنط . فاطرق باب شيرمان العجوز وبلغه تحياتى ، واننى بحاجة عاجلة الى « توبى » . ثم أحضر توبى معك فى العربة

— انه كلب على ما أظن ؟

— نعم ، وهو كلب غريب الأطوار ، لديه قدرة خارقة على تعقب الروائح . وأنا أفضل أن يكون توبى معى على أن تكون كل قوة مباحث لندن تحت تصرفى فى حل هذه القضية

— سأحضره إذن معى . والساعة الآن الواحدة . فيمكننى أن أعود قبل الساعة الثالثة إذا وفقت الى حصان مستريح

— وفى هذه المدة سأحاول أن أستخلص كل ما يمكن من المعلومات من المشرفة على الدار مسز بيرنستون ، ومن الخادم الهندى الذى قال لى مستر ثاديوس أنه ينام فى الحجرة العليا المجاورة لمسرح الجريمة . وبعد ذلك سأحاول دراسة خطط جونس العظيمة . واستمتع بالاصغاء لتهكمه الرقيق

ولحسن الحظ وجدت رجال البوليس قد حضروا فى عربة جوادها مستريح ، وكان الحوذى لايزال واقفاً كى يعود بهم . وفى هذه العربة دعوت الآنسة مورستان للركوب كى أعود بها الى بيتها



الفصل الحادى عشر

الكلب توبى

الحقيقة ان الآنسة مورستان أثبتت فى هذه المناسبة ان فيها الشىء الكثير من طبائع الملائكة . فطالما كان أمام ناظريها مخلوق أضعف منها يستثير رحمتها ورعايتها ، كان ضعفها الأنثوى يختفى تماماً . وهكذا وجدتها مشرقة متجلدة تشدد من عزيمة مشرفة الدار المروعة المتخاذلة . ولكن ما ان انفردت بى فى العربة حتى تركت لطبيعتها الرقيقة العنان ، وكان أول ما أقدمت عليه بطبيعة الحال هو الاغماء . وأعقبت ذلك بنوبة حادة من البكاء . ولها كل العذر بعد الذى امتحنت به أعصابها طول الليلة من المغامرات المنكودة

وقد صارحتنى فيما بعد اننى بدوت لها بارداً أكثر مما يجب فى تلك الرحلة الى بيتها . ولا شك أنها لم تكن تدرى شيئاً عن الصراع القائم فى صدرى . أو الجهد الهائل الذى بذلته لأملك زمام نفسى فلا أضمها بين ذراعى

والحقيقة اننى شعرت بنفسى أتجه نحوها بكل عواطفى وكل حبى ، كما اتجهت يدى الى يدها ونحن فى الحديقة . وأحسست ان السنوات الطويلة من حوادث الحياة العادية ما كانت لتكشف لى عن طبيعتها العذبة الباسلة كما كشفتها لى تجارب ذلك اليوم الواحد فى غرابتها الخارقة

أجل كنت بكل نفسى مندفعاً نحوها . ولكن اعتباراً واحداً أو اعتبارين هما اللذان جمدا كلمات الحب على شفتى . فهى أولا كانت فى حالة من الاعياء العصبى والعقلى تجعلها غير مالكة لزمام نفسها . فلم يكن من العدل انتهاز ساعة ضعفها لأعرض عليها حبى

وهذا الاعتبار كان حريا أن يهون لولا الاعتبار الآخر . وهو انها أصبحت

غنية . فلو كتب لجهود هولمز النجاح لورثت مئات الألوف . فهل كان من العدل ، وهل كان من الشرف ، ان جراحا على الاستيداع يستغل هذه الفرصة لاقتناص مثل تلك الغنيمة ؟ أليس من المحتمل أن تنظر الى حينئذ نظرتها الى صياد الثروة السوقى ؟

ما كنت مستطيعا أن أجازف بجولان مثل تلك الفكرة فى رأسها . فكنز آجرا الملعون كان يقف بيننا حائلا لا يمكن تجاهله أو اجتيازه

□

وكانت الساعة قد قاربت الثانية صباحا حين وصلنا الى دار مسز سسيل فورستر . وكان الخدم قد انسحبوا منذ ساعات الى مضاجعهم . أما مسز فورستر فكان اهتمامها شديداً بالرسالة الغريبة التى تلقتها الآنسة مورستان بحيث جلست ساهرة فى انتظار عودتها

وكانت هى التى فتحت الباب بنفسها . فاذا بها سيدة لطيفة فى منتصف العمر وقد سرنى أن أرى كيف طوقت بذراعها فى حنان خاصرة الآنسة مورستان كأنها أم رؤوم . وأن اسمع صوتها يرحب بها فى بشاشة الأمومة وترفقها . فأدركت ان الآنسة مورستان ليست مجرد مستخدمة أجيرة ، وإنما هى صديقة معززة مكرمة

وقامت الآنسة بتقديمى اليها . فألحت مسز فورستر أن أدخل وأشرح لها كل ما حدث من الغرائب . فوضحت لها أهمية المهمة التى لا بد لى من إتمامها . ووعدتها مخلصاً أن أمر بالبيت لأبلغها أى تقدم يمكن أن تحظى به القضية . ثم ركبت العربة وتركتهما على السلم الخارجى وضوء البهو يسقط عليهما من الباب المفتوح . فلما نظرت ورائى بدا لى ان صورتهما فى ذلك الاطار هى صورة العش الهادىء الذى يحرك كل قلب محب لرغد الحياة . ويالتلك الصورة من نقيض لما نحن فى أعماقه من ظلمات هذه القضية المضطربة

وجعلت فى طريقى أقلب القضية على وجوهها وأستعرض ما توالى من أحداثها فلا أكاد أجد أملا فى حل ألغازها

وأخيراً وصلت بى العربة الى الموضع الأدنى من حى لامبث . فاذا حارة بنتشين عبارة عن صف من بيوت ذات طابقين قبيحة المنظر حقيرة البناء .

واستغرقت زمناً وأنا أكرر الطرق على الباب رقم ٣ قبل أن أجد مجيباً . وأخيراً لمحت ضوءاً من شمعة يتحرك وراء خشب النافذة العلوية . ثم أطل منها وجه صاح بى فى غضب :

— اذهب لحال سبيلك أيها السكران العربيد ! ولو عدت للطرق بعدها سأفتح أكنان الكلاب وأطلق عليك ثلاثة وأربعين منها !

— لو أطلقت واحداً ميناً منها فقط لكان هذا حسبى ، لأنى جئتك أسعى وراء الحصول عليه

— قلت لك انصرف أيها المعتوه وإلا ألقيت عليك الماء القذر

— ولكنى أريد كلباً

— ليس هذا وقت بيع الكلاب . سأعد الى ثلاثة ، فان لم تبتعد صببت عليك الماء . وأحذرك انه غير طاهر

— أرسلنى مستر شرلوك هولمز ...

ولم أكن بحاجة الى إتمام كلامى . لأن هذا الاسم فعل فى الرجل فعل السحر فسرعان ما أغلق النافذة . وبعد دقيقة واحدة كان باب الدار قد فتح عن آخره . فاذا المستر شيرمان رجل نحيف عجوز محنى الكتفين ، معروق الرقبة ، يلبس منظاراً أزرق اللون . ورحب بى الرجل قائلا :

— إن صديق مستر شرلوك يجد منى كل ترحيب فى كل وقت . تفضل بالدخول ياسيدى . ابتعد عن هذا السلاق ، فانه يعض . ياللكلب الملعون ! أتريد قطعة من هذا السيد ؟ والآن ماهو طلب المستر شرلوك هولمز ياسيدى ؟

— إنه يريد كلباً من كلابك . نسيت اسمه

— لا بأس . لا بد انه توبى

— فعلا . هذا هو الاسم

— توبى يقيم فى النزل رقم ٧ فى الجانب الأيسر

وكان يقصد بكلمة منزل أكنان الكلاب التى جعل يجوس بينها حاملا الشمعة . وكانت عيون هذه الحيوانات الغريبة تلمع فى الضوء الخافت من كل ركن فى أرجاء المكان . وحتى الرفوف العليا كانت مكتظة بأنواع من الطيور

فى أقفاص ، كانت تقف على رجل واحدة وتفتح عينيها من نعاسها لتتبين ماذا وراء ضجتنا

وتكشف توبى عن حيوان قبيح الشكل ، طويل الشعر ، مقطوع الأذنين ، هجين من سلالتين مختلفتين . لونه أبيض وبه بقع بنية . وشكل وجهه منفر . وبعد تردد شديد رضى أن يتناول من راحة يدى قطعة من السكر دسها شيرمان فى يدى خلسة

وبعد أن عقدت بيننا هذه الصداقة أو المحالفة ، تبعنى توبى الى العربة ولم يظهر أى صعوبة فى مصاحبتى

ودقت ساعة بيج بين الثالثة تماماً حينما وجدت نفسى مرة أخرى فى بونديتشرى لودج

ولم أجد هذه المرة معارضة فى الدخول من أحد . ذلك ان المصارع السابق ماك موردو كان قد قبض عليه بوصفه شريكا فى الجريمة . ورحل هو ومستر ثاديوس شولتو الى مركز البوليس . ووقف على الباب اثنان من الكونستبلات سمحا لى بالدخول أنا والكلب

ووجدت هولمز واقفاً على السلم ويداه فى جيوبه يدخن غليونه فما أن رآنى حتى تهلل وداعب الكلب قائلا :

— مرحباً بك أيها الكلب النابه ! ان أثلنى جونس قد انصرف . ولكن بعد أن بذل نشاطاً هائلا منذ رحيلك . فهو لم يكفه أن يعتقل صديقنا ثاديوس ، بل اعتقل أيضاً البواب ، ومشرفة الدار ، والخادم الهندى . وعلى هذا فنحن فى الدار وحدنا فيما عدا جاويش فى الغرفة العليا . فاربط الكلب هنا وتعال معى نصعد الى هناك

الفصل الثانى عشر

حكاية البرميل

ربطنا توبى الى المائدة الكبيرة فى البهو ثم صعدنا السلالم . ووجدنا الغرفة على الحالة التى تركناها بها ، فيما عدا ملاءة بيضاء غطيت بها الشخصية الرئيسية . وقد وقف جاويش من رجال البوليس فى الركن . فقال له صاحبى :

— أعرنى بطاريتك يا جاويش . والآن يجب أن أخلع حذائى وجوربى . وعليك أن تأخذ يا وطسن هذه الأشياء الى الطابق الأسفل . ذلك انى سأقوم بعملية تسلق . وأغمس منديلى هذا فى سائل الكريوزوت . نعم هكذا . والآن اصعد معى الى الصندرة العليا لحظة واحدة

وصعدنا الى الصندرة عن طريق الثقب . ووجه هولمز نور البطارية الى العلامات التى تشبه أقدام الأطفال المرتسمة فى التراب وقال :

— أريد منك أن تتنبه جيداً لآثار الأقدام هذه . ألا تلاحظ عليها شيئاً غريباً ؟ انظر جيداً

— إنها إما أن تكون أقدام طفل أو امرأة صغيرة السن أو الحجم

— ولكن ألا تلاحظ عليها شيئاً فيما عدا صغر الحجم ؟

— إنها تبدو فى نظرى كأى آثار أقدام أخرى

— بالعكس . انظر هنا ! هذا هو أثر القدم اليمنى فى التراب . والآن سأطبع أنا فى التراب أثراً من قدمى اليمنى العارية بجواره . انظر ! ألا ترى بينهما فرقاً ملحوظاً ؟

— بلى ! أصابع قدميك متقاربة بل متلاصقة . أما الأثر الأصلى فالأصابع فيه متفرقة تماماً ، بل متباعدة

— صحيح . هذه هى نقطة الخلاف حقا . فتذكرها جيداً . والآن أرجو منك أن تشم رائحة هذه النافذة . وسأبقى أنا بعيداً ومعى المنديل الملوث

وفعلت ما طلبه منى فشممت من تلك النافذة المسحورة رائحة نفاذة أشبه برائحة القار وقلت له ذلك . فعلق قائلا :

— هذا هو الموضع الذى داس عليه بقدمه وهو خارج . وإذا كنت أنت قد استطعت أن تتعقب هذه الرائحة . فليس هناك من شك ان توبى لن يجد صعوبة فى ذلك إطلاقا . والآن انزل وفك قياد توبى ثم اخرج به الى الحديقة وانتظر

وما أن نفذت كلامه بكل سرعة حتى رأيته قد صار على سقف البيت وهو يتحرك فوق المنحدر كأنه دودة ضخمة . ثم غاب عن بصرى وراء مجموعة من المداخن . وظهر بعدها ليختفى بعد برهة قصيرة على الجانب الآخر من السقف . فلما درت بالكلب حول البيت وجدته جالسا على زاوية البيت فصاح بى :

— أهذا أنت يا وطسن ؟

— أجل

— هذا هو المكان . وما الذى أمامك هناك بلونه الأسود ؟

— برميل ماء

— هل فوقه الغطاء ؟

— نعم

— ألا تجد أثراً لسلم ؟

— كلا

— يالذاك الملعون ! لقد صعد من موضع يحطم الرقاب . ويجب أن أكون أنا قادراً على الهبوط حيث استطاع هو أن يصعد . وأظن ماسورة الماء هذه متينة . فلنهبط على كل حال !

وربط البطارية فى عنقه . فرأيته على ضوئها يتسلق ماسورة الماء هابطاً على جانب الجدار . ثم قفز فصار فوق غطاء البرميل ، ومن هناك هبط على الأرض . ثم تناول منى جوربه وحذاءه فلبسهما وهو يقول :

— إن قوالب الطوب كانت غير متماسكة تماماً . ويظهر انه وهو مستعجل

أسقط هذا الشىء . وهو مما يؤيد تشخيصى للقضية على حد تعبيركم أنتم معاشر الأطباء . فانظر بنفسك

فتناولت منه ذلك الشىء . فاذا كيس صغير منسوج من أتيال أعشاب جافة ملونة معلقة بها حبوب نباتية صغيرة كالخرز . وكان شكل هذا الكيس غريباً . يشبه الى حد ما شكل صندوق السجائر . وبداخله ستة من الشظايا المدببة من أحد طرفيها ، والمدورة من الطرف الآخر . تشبه تمام الشبه الشظية التي كانت مغروسة فى جمجمة برثلوميو شولتو

ولما أبديت هذا الرأى ، هز هولمز رأسه وقال :

— إنها أشياء شيطانية . فاحذر ياوطسن أن تصيب نفسك . وإنى لسعيد اننى حصلت عليها . فمن المحتمل جداً انها كل رصيده . وهذا يقلل من احتمال اصابتى أو اصابتك . فأنا شخصياً أفضل أن أتصدى لرصاصة من نوع المارتينى على أن أتعرض لواحدة من هذه الشظايا . والآن ياوطسن هل فى استطاعتك أن تتحمل مطاردة على الأقدام مقدار ستة أميال ؟

— طبعاً ...

— وساقاك المهيضة أتتحمل ذلك ؟

— أجل ...

فأقبل شرلوك هولمز على توبى ليتولى تشميمه المنديل المغموس فى الكريوزوت . بينما وقف الحيوان وقد باعد بين قائمتيه الأماميتين وتصلب عنقه كأنه خبير عريق يفحص عطراً غريباً أو نبيذاً عتيقاً تمتحن به خبرته . وبعد ذلك ألقى هولمز بالمنديل بعيداً . وربط حبلا غليظاً فى الطوق الجلدى الذى يحيط بعنق الكلب . وقاده الى قاعدة برميل الماء

وما أن فعل ذلك حتى صدرت عن الكلب سلسلة من النباح المرتفع ودس فمه فى التراب ثم انطلق وهو على هذه الصورة فى سرعة جعلت الحبل الطويل مشدوداً بيننا وبينه مع اننا كنا نجرى بأقصى قوتنا

وكان الشرق قد بدأ يبيض قليلا قليلا فاستطعنا أن نتبين على مسافة ما أمامنا من الأشياء فى الضوء الباهت . وقد أصبحت كتلة البيت الضخمة بنوافذه المغلقة من ورائنا

وقادنا الكلب عبر الحديقة بحفرها وخنادقها . الى أن وصلنا الى السور المرتفع . فتتبع توبى أساسه وهو يتشمم الأرض بتدقيق . ثم وقف عند ركن كانت فيه شجيرة

وفى موضع التحام الحائطين كانت هناك قوالب من الطوب غير متلاحمة . وبعضها منزوع بيد فاعل . وكأنها قد استعملت بمثابة سلم . لأن الثغرات التى كانت فى الجدار لم تكن لها أطراف حادة

وتسلق هولمز الجدار من هذه المواضع . ثم تناول الكلب منى وأنزله فى الجهة الأخرى من الجدار . ولما صعدت الى جواره فوق السور قال لى :

— فى هذا الموضع أثر يد الرجل ذى الساق الخشبية . فها أنت ترى هذا الأثر الخفيف من الدم على الجير الأبيض . ومن حسن الحظ ان المطر منذ أمس لم يكن غزيراً . ولهذا سنجد ان الرائحة قد بقيت على الطريق بالرغم من انقضاء ثمانية وعشرين ساعة

وأعترف هنا ان الشكوك ثارت فى نفسى عند ما فكرت فى حركة المرور الهائلة التى مرت على ذلك الطريق اللندنى فى تلك الفترة . بيد ان مخاوفى هذه سرعان ما تبددت . لأن توبى لم يتردد لحظة واحدة . بل راح ينهب الأرض وأنفه الى التراب كأنه كرة تتدحرج . فدل هذا على ان رائحة الكريوزوت النفاذة ظلت متفوقة على جميع الروائح الأخرى

وقال لى هولمز ونحن فى الطريق :

— أرجوك يا وطسن ألا تتخيل اننى أعتمد فى نجاحى على مجرد المصادفة التى جعلت أحد الجانيين يلوث قدمه بهذا السائل الكيماوى . بل ان تحت يدى من المعلومات ما يمكننى من تعقبهما من نواح مختلفة . ولكنى طبعاً ما كنت لأتأخر عن انتهاز المصادفة المواتية التى وضعها حسن الحظ بين أيدينا وإلا كنت مجرماً فى حق عملى طبعاً ، ولولا هذه المصادفة لكان اكتشاف الجناة فى هذه القضية عملا ذهنياً خالصاً . وهو ما كنت أفضله طبعاً

— إنها مازالت ياهولمز قضية عقلية تتحدى الذكاء . وإنى أصارحك باعجابى الشديد بالوسائل التى تتبعها للوصول الى نتائج مدهشة . فهذه القضية أغرب وأعجب القضايا التى نهضت بأعبائها . فانى مازلت أجهل كيف أمكنك أن تصف

بكل دقة وكل ثقة الرجل ذا الساق الخشبية

— هذه مسألة أتفه وأبسط من أن تحتاج لتفسير يا بنى ! ولست أحب الحيل المسرحية . فنحن نعلم ان ضابطين من حراس المسجونين فى الهند عرفوا سر كنز مدفون فى مكان ما . والذى رسم لهما خريطة مكان الكنز رجل انجليزى اسمه جوناثان سمول . وأنت تذكر جيداً اننا قرأنا الاسم على الرسم التخطيطى الذى وجد بين مخلفات الكابتن مورستان . فهو الذى وقع الخريطة بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن شركائه الذين رمز اليهم بذلك الاسم الخيالى « علامة الـ ٤ » . وبناء على هذه الخريطة تمكن الضابطان ، أو على الأقل أحدهما ، من الحصول على الكنز وإحضاره الى انجلترا . مع إخلاله فيما يلوح بشروط معينة كانت أساس الاتفاق الرباعى . والآن يجب أن نتساءل لماذا لم يحصل جوناثان سمول على ذلك الكنز بنفسه مادام يعرف موضعه ؟ والجواب واضح وبديهى . فتاريخ الخريطة يدل على انها رسمت فى فترة كان مورستان يتصل اتصالا مباشراً بالمساجين . إذن جوناثان سمول لم يتمكن من الحصول على الكنز لأنه هو وشركاؤه كانوا مسجونين لا يستطيعون الذهاب الى موضع الكنز بأنفسهم

— ولكن هذه مجرد فروض ياعزيزى

— بل أكثر من فروض بكثير . إنها الفرض الوحيد الذى يغطى جميع العناصر ويفسرها . فلننظر الآن فى مدى تلك التغطية . هذا هو الميجور شولتو ينعم بالسلام جملة سنوات ، سعيداً بامتلاك الكنز . ثم إذا به يتلقى خطاباً من الهند يصيبه بذعر شديد . فما هو ذلك الخطاب ؟

— أعتقد انه خطاب يدله على ان الرجال الذين أساء اليهم أصبحوا مطلقى السراح . أليس هذا رأيك ؟

— أطلق سراحهم أو هربوا . والأرجح انهم هربوا . إذ انه وهو الضابط السابق فى حرس السجن كان حرياً أن يعلم من بداية الأمر التاريخ الرسمى لانتهاء مدة عقوبتهم القانونية . فلم يكن خروجهم ليقع منه موقع المفاجأة . وما الذى حدث له بعد ذلك ؟ إنه جعل يحتاط فى فزع من رجل له ساق خشبية . وهذا الرجل أبيض اللون

— وما الدليل على انه ابيض اللون وليس هنديا ؟

— ألا تذكر انه أخطأ فظن رجلا من البائعين الجائلين له ساق خشبية هو عدوه العتيد ، فأطلق عليه رصاص مسدسه فعلا ؟ وهذا يقطع بأن الرجل من البيض . ولما كانت الأسماء التى على الخريطة كلها أسماء هنود فيما عدا اسم واحد . فلنا أن نستخلص بكل ثقة ان هـذا الاسم الأوربى الواحد هو اسم ذلك الأعرج . وهذا الاسم هو جوناثان سمول . فهل تجد فى هذه السلسلة من الاستدلالات ثغرة خطأ ؟

— كلا . بل أجدها واضحة محبوكة

— عظيم . والآن هيا بنـا نضع نفسينا فى مكان جوناثان سمول هذا . ولنحاول أن ننظر الى الوضوع من وجهة نظره . انه أتى الى انجلترا وفى نيته هدف مزدوج . هدفه الأول أن يسترد ما يعتبره حقه الشرعى والهدف الآخر هو الانتقام من الرجل الذى أساء اليه

— هذا معقول تماماً

— وقد اكتشف سمول المكان الذى يقيم فيه شولتو . ومن الجائز جداً انه تمكن من إنشـاء علاقات مع أحد المقيمين فى داخل الدار . فهناك مثلا الساقى « لال راو » الذى لم تقع عليه عيوننا بعد . ومسز بيرنستون لا تثنى عليه كثيراً . ولـكن سمول لم يستطع أن يعرف المكان الذى أخفى فيه الكنز . لأنه كان مجهولا من جميع الناس ماعدا الميجور نفسه وخادماً واحداً كان قد مات . وفجأة وصل الى علم سمول ان الميجور فى لحظاته الأخيرة . ففزع خوفاً من أن يموت سر موضع الـكنز معه . فاقتحم نطاق الحراس مجـازفاً بنفسه وشق طريقه الى نافذة غرفة المحتضر . ولم يحل بينه وبين الدخول اليهـا غير وجود ولديه التوأمين

— الى هنا والتسلسل معقول

— بيد ان غضبه الجنونى وحقده على الميت حملاه على انتهـاك حرمته ودخول مخدعه ليلا حيث فتش فى أوراقه الخـاصة على أمل العثور على أى مذكرة تشير الى موضع الـكنز . وأخيراً ترك هـذه الورقة التي تدل على زيارته وهى « رقم الـ ٤ » . ولا شك انه كان ينوى من قبـل فى حالة

تمكنه من قتـل الميجور أن يترك مثل تلك العلامة على الجثـة للدلالة على ان القتـل ليس جريمة عادية ، وإنمـا هو من وجهة نظر مجموعة الشركاء على الأقل عمل من أعمـال العدالة والقصاص . وهى نزوات كثيراً ما تخطر للمجرمين ليقنعوا بها أنفسهم أنهم ليسوا معتدين

— وهذا أيضاً معقول فى تصوره

— والآن ماذا يستطيع جوناثان سمول أن يفعل بعد ذلك الفشل ؟ إنه لا يجد مناصاً من مواصلة المراقبة لعمليات الحفر والتنقيب عن الـكنز . وربما كان يغادر انجلترا ويعود فى فترات. وأخيراً تم اكتشاف الصندرة السرية . وفى اليوم نفسه وصل إليـه الخبر عن طريق جاسوسه فى الدار . فلابد من وجود مثل ذلك الجاسوس لتفسير وصول النبأ إليه فى يومه

— هذا منطق جداً

— ولمـا كان جوناثان لا يستطيع مطلقاً بساقه الخشبية أن يصل من الخارج إلى حجرة برثلوميو شولتو الشاهقة . فقد وجب عليه أن يتخذ له شريكا عجيب الشأن ، تمكن من التغلب على هذه العقبة بصفات طبيعية فيه . بيد أنه وطأ بقدمه العارية مادة الـكريوزوت . ومن هنا نشأ دور توبى ، ومطاردة مقدارها ستة أميال ينوء بها ضابط جراح محال على الاستيداع يشكو من جرح فى أحد ساقيه

— ولـكن الشريك هو الذى اقترف الجريمة وليس جوناثان

— هـذا صحيح . وأعتقد أنه اقترفها مخالفاً أمر جوناثان . فجوناثان لا يحمل أى حقد شخصى ضد برثلوميو شولتو. وكان يفضل الاكتفاء بتقييده وتكميمه . لأنه لا ضرورة تضطره الى وضع عنقه فى حبل المشنقة . ولـكن الفطرة الوحشية لدى شريكه الغريب الأطوار انفجرت من غير ضابط وفعل السم فعله . فلم يجـد جوناثان سمول بداً من ترك الورقة ، وتدلية صندوق الـكنزل إلى الأرض بالحبال ، ثم تبعه هو عن نفس الطريق . وهـذا هو تسلسل الحوادث كما تمكنت من حل طلاسمه

— ولـكن الأوصاف الأخرى التي ألصقتها به ؟

— انها كلها طبيعية . فهو لابد أن يكون فى منتصف العمر ، لوحته

الشمس كثيراً بعـد أن قضى مدة عقوبة طويلة فى مكان محرق مثل جزائر اندامانس

— وطوله ؟

— يمكن حساب الطول بسهولة من قياس بعد الخطوة . يضاف الى هذا أننا نعرف من كلام ثاديوس شـولتو أن الرجل الذى ظهر وجهه فى النافذة ساعة وفاة أبيه كان ملتحياً . فمنظر شعر وجهه كان أهم صفة انطبعت فى ذاكرته وأظن أن هذه هى جميع الأوصاف

— والشريك ؟

— ليس فى صدده شىء من الصعوبة . ولـكنك ستعرف كل شىء عنه بعد قليل . ما أجمل هواء الصباح ! انظر الى هذه السحابة الصغيرة وكيف تسبح فى الفضاء كأنها ريشة قرمزية من طائر نارى ! وهذه هى أشعة الشمس الحمراء تشق كبد السماء لتظلل لندن . وفى لندن ملايين من الناس . ولـكن مامن أحد منهم خرج لمهمة فى مثل غرابة مهمتنا

ثم راح يتحدث عن عظمة الطبيعة ، وعن الفلسفة الألمانية وعن فضل كارلايل فى تعريف الانجليز بها . وفجأة سألنى :

— هل معك مسدسك ؟

— ليس معى إلا عصاى

— من المحتمل جداً أن نحتاج الى استعمال العنف حين نصل الى مكمنهما وسأترك لك أمر جوناثان . أما شريكه فسأطلق عليه الرصاص عند أول بادرة من بوادر الشر ولن أتردد

ثم أخرج مسدسه ووضع فيه الرصاص وأعاده الى جيب سترته الأيمن من الخارج . وكنا طيلة ذلك الوقت نتبع توبى فى الطرق الخاوية المؤدية الى المدينة وبدأنا ندخل فى شوارع متشابكة ، بدأت تموج بالسابلة من العمال فى أرصفة الميناء الذاهبين الى أعمالهم . والنساء يفتحن الشبابيك ويكنسن عتبات الدور وخدم المقاصف العامة بدأوا يفتحون أبوابها . وهناك بعض السوقة يخرجون من الحانات وهم يمسحون لحاهم بأكمامهم بعد جرعة عاجلة من الجعة على عادة المدمنين فى الصبوح . بيد أن صديقنا توبى لم يكن يلتفت يميناً ولا يساراً . بل

يمضى على هدى أنفـه المدسوس فى الأرض . وكان فى الحين بعد الحين يطلق نبحة عالية يدلنا بها على أنه صادف موضعاً فيه الرائحة شديدة

واجتزنا ستريتهام ، وبركستون ، وكمبرويل. فوجدنا أنفسنا فى كننجتون من جهة الشرق . ويظهر أن الرجلين اللذين نقتفى أثرهما تتبعاً منعرجات كثيرة غريبة الشكل . وربما كان دافعهما الى ذلك هو الرغبة فى التضليل . فانهما لم يسلكا طريقاً رئيسياً واحداً حيثما كانت هناك طرق جانبية تقوم مقامه ومن كننجتون انحدرا شمالا مخترقين شارع بوند وشارع مايلز الى ميدان نايت . وهناك توقف توبى عن التقدم وراح يجرى الى الأمام والخلف وقد ظهرت عليه الحيرة الشديدة . ثم جعل يدور فى حلقات وينظر الينا وكأنه ينتظر منا أن نرثى له ونشاركه فى محنته فصاح هولمز :

— ماذا حدث لهذا الـكلب ؟

— انه يبدو حائراً

— أجل . ولكن ما معنى هذا ؟ لا يمكن أن يكونا قد استقلا عربة من هنا ، أوطاراً فى بالون هوائى

— ربما توقفا هنا بعض الوقت

— أصبت . هاهو الـكلب قد استرد ثقته وانطلق

وكان انطلاق توبى فى هذه المرة سريعاً ، مما يدل على يقينه . وخيل الينا أن الرائحة أصبحت فى خياشيمه أقوى وأوضح . لأنه لم يعد يدس أنفه فى الأرض ليتلمسها بل كان يجذب الحبل ويجرى بآخر سرعة

وتبينت فى الوميض الخارق الذى انبعث من عينى هولمز أنه أصبح يعتقد أننا اقتربنا من نهاية رحلتنا . وكنا عندئذ نخترق « ناين إلمز » الى أن وصلنا الى مخازن الأخشاب فيما يلى حانة النسر الأبيض مباشرة . وهناك رأينا الـكلب يكاد يجن جنونه من الهياج ويصر على أن يخترق بنا البوابة المحيطة بمخازن أخشاب نلسن حيث كان النشارون قد شرعوا فى عملهم اليومى فعلا

وجعل الـكلب يجرنا وراءه فى الدهاليز المتعرجة بين أكداس الاخشاب المنتظمة . حتى كأنها بيت التيه الذى تصفه الأساطير ، من دخل فيه لايعرف طريقه الى الخروج الا بمعجزة

وأخيراً نبح توبى نبحة نصر كأنها هتاف جنرال . ثم قفز فى زهو فوق برميل ضخم كان لم يزل قائماً فوق عربة ترولى هى التى أحضرته الى ذلك الموضع وبلسان يتدلى من التعب ، وعينين تومضان من السرور ، وقف توبى فوق غطاء البرميل ينقل نظره بينى وبين صاحبى ، وهو ينتظر منا علامة من علامات الامتنان على ذلك الظفر العزيز

وكانت جدران البرميل من الخارج ، وعجلات الترولى ، ملطخة بسائل أسود ، والهواء المحيط مثقل برائحة نفاذة هى رائحة الكريوزوت

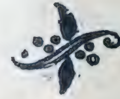
ونظر الى شرلوك هولمز مبهوتاً ، ونظرت اليه بمثل ذلك ، ثم انفجرنا فى آن واحد نضحك حتى كدنا نستلقى على قفوينا

ولما هدأت قليلا قلت له فى شىء من السخرية :

— ماذا أيها الصديق ؟ هل فقد توبى شهرته بالعصمة والاعجاز ؟

فأجابنى هولمز وهو يرفع الكلب من فوق البرميل ويجره بصعوبة باحثاً عن طريق الخروج من بين اكوام الخشب الى خارج المخزن المترامى الأطراف :

— بل إنه لم يخطىء . وكل ما هناك أنه تصرف على هدى فطرته . ولو أنك تصورت مقدار سائل الكريوزوت الذى ينقل فى طرقات لندن كل يوم لأغراض الصناعة وغيرها ، لما عجبت لتشابك آثار رائحته . ومن هنا تتبع توبى أقوى تلك المسالك ، فعلينا أن نعود الى حيث ظهرت عليه الحيرة كى يسلك بنا الطريق الآخر الذى كانت فيه الرائحة أضعف



الفصل الثالث عشر

عود على بدء

لم يكن أمامنا لحسن الحظ شوط كبير نرجعه القهقرى إلى ذلك الركن من ميدان نايت حيث كان توبى قد وقف حائراً

ولما وصلنا إلى هناك جعل توبى يلف فى دائرة واسعة ، ثم جمع رأيه واندفع فى اتجاه جديد . فقلت :

— يجب أن نحاذر كى لا يقودنا فى هذه المرة إلى المصدر الذى جاء منه برميل الكريوزوت

— لقد تنبهت لهذا . ولكنك تلاحظ أنه فى هذه المرة يلتزم الطوار ، فى حين أن البرميل لا يمكن أن يمر إلا فى وسط الطريق . وهذا يدلنا على أن توبى يتتبع أثر أشخاص يسيرون على أقدامهم

واتجه الرائد بنا نحو شاطىء النهر ، مخترقاً ميدان بلمونت وشارع الأمير . وفى نهاية شارع بروض اندفع الكلب إلى ضفة الماء مباشرة حيث كان هناك كشك خشبى ، وعند الشاطىء وقف توبى يزوم وينظر إلى مجرى الماء القاتم . فقال هولمز :

— إن الحظ بدأ يخاصمنا . لقد استقلا قارباً

وبالقرب من هذا الموضع وجدنا بيتاً صغيراً مبنياً بالطوب ، ومن فوق النافذة الثانية لافتة من الخشب مكتوب عليها بحروف كبيرة :

— موردخاى سمث . قوارب للايجار بالساعة وباليوم

وفوق الباب وجدنا لافتة أخرى تفيد وجود لنش بخارى . كما رأينا بالقرب من الباب كومة من الفحم النباتى . فجعل شرلوك هولمز ينظر حوله

يبطء وقد دل وجهه على التجهم ثم قال :

— يبدو أن هذين الشخصين أذكى مما توقعت. وأحسب أنهما قد دبرا طريقة للفرار من هنا قبل إتمام عمليتهما

وكان هولمز يقترب من باب البيت حينما انفتح وظهر منه غلام متموج الشعر فى السادسة من عمره يجرى هارباً وفى أعقابه امرأة حمراء الوجه أميل إلى البدانة وفى يدها صابونة واسفنجة وأخذت تصيح :

— ارجع يا جاك لتتم حمامك . ارجع أيها القرد الصغير . فلو عاد أبوك ووجدك على هذه الصورة لجعل يومنا أسود !

فتدخل هولمز فى الحديث ببراعة قائلا :

— يا للغلام الجميل الصغير ! يا لخديه المتوردين ! أليس فى نفسك شىء يا جاك فأعطيك إياه ؟

ففكر الغلام هنيهة ثم قال :

— اعطنى شلناً !

— أليس هناك شىء تحبه أكثر من الشلن ؟

ففكر قليلا ثم قال :

— هات شلنين إذن

— وهو كذلك . افتح يدك يا صاح !

ثم التفت إلى الأم وهو يضع نصف الريال البراق فى يد الغلام وقال :

— يا له من غلام بديع يا مسز سمث !

— باركتك السماء يا سيدى . إنه غلام ليس فى الجيرة من هو خير منه . ولكنه متعب جداً يا سيدى . ولا سيما حين تطول غيبة زوجى أياماً متعاقبة

فأظهر هولمز خيبة الأمل وقال :

— أهو غائب يا سيدتى ؟ كم يسوؤنى هذا لأنى كنت أريد أن أتحدث إلى مستر سميث

— إنه غائب منذ صباح أمس يا سيدى . وأقول لك الحق انى بدأت أشعر بالقلق عليه . ولكن إن كنت تريده لاستئجار زورق يا سيدى فانى أستطيع أن أقوم بهذه الخدمة

— كنت أريد أن أستأجر اللنش البخارى

— باركتك السماء يا سيدى . إنه رحل فى اللنش . وهذا ما يحيرنى . لأنى أعلم أنه لا يحمل فيه من الفحم إلا مقدار ما يكفى لذهابه إلى وولويتش وعودته منها

— ربما اشترى ما يلزمه من الفحم من أى مكان على شاطىء النهر

— ربما يا سيدى . ولكن ليست هذه عادته . فهو يكره الشراء بالقطاعى ويشكو من مبالغتهم فى أسعار الفحم هناك . أضف إلى هذا يا سيدى أنى لا أحب أصحاب السيقان الخشبية . ولا سيما هذا الرجل القبيح الخلقة الغليظ الصوت . ولست أدرى ماذا يريد هنا

فتصنع هولمز الدهشة وقال :

— رجل له ساق خشبية ؟

— نعم يا سيدى . وله وجه كوجه القرد . وقد أكثر التردد على زوجى أخيراً ، وكان هو الذى أيقظه ليلة أمس . وكان زوجى يعلم أنه سيأتى ، لأنه أعد المراجل البخارية فى اللنش من المساء . وأقول لك الحق يا سيدى اننى لا أشعر بارتياح لهذا الموضوع

فهز هولمز كتفيه وقال :

— ولكنك تزعجين نفسك يا مسز سمث بأشياء لا أهمية لها . فمن أدراك أن الرجل ذا الساق الخشبية هو الذى جاء ليلة أمس ؟ لست أرى دليلا على هذا

— كان الظلام حالكا ولكنى عرفت صوته يا سيدى . فصوته فريد فى خشونته . وجاء فطرق النافذة فى نحو الثالثة صباحاً وجعل يصيح طالباً من زوجى أن يسرع بالنهوض . فأيقظ زوجى ابنه الأكبر جيم . وخرجا معاً من غير أن يقولا لى أى كلمة . ثم سمعت صوت الساق الخشبية وهى ترن فوق الصخور

— وهل كان ذو الساق الخشبية بمفرده ؟

— لا أجزم يا سيدى بشىء . لأنى لم أسمع سواه

— يؤسفنى يا سيدتى أن مستر سمث غائب . فقد كنت أريد اللنش البخارى

اليوم . لأنى سمعت عن هذا اللنش ثناء كثيراً . ساعدينى يا سيدتى على تذكر الاسم فقد نسيته

— أورورا يا سيدى

— فعلا . أليست هى تلك السفينة العتيقة الخضراء ذات الخط الأصفر ؟

— كلا ياسيدى . بل ان لنشنا أنيق جداً ورشيق . وقد طلى أخيراً باللون الأسود وفيه خطان أحمران

— شكراً لك . أرجو أن أحضر قريباً . وأن تكونى قد اطمأننت على مستر سمث . وسأهبط أنا النهر الآن وإذا عثرت بأورورا سأخبر مستر سمث أنك مشغولة البال . إن مدخنتها سوداء أليس كذلك ؟

— سوداء وفيها شريط أبيض

— وهو كذلك . طاب صباحك يا مسز سمث . إنى أرى هناك نوتياً معه زورق يا وطسن وسنستخدمه فى عبور النهر

وفى طريقنا عبر النهر قال لى هولمز :

— إن المهم مع الناس الذين من هذا القبيل ألا تدعهم يشعرون أن المعلومات التى لديهم يمكن أن تكون لها أى أهمية عندك . فانهم إن شعروا بذلك أغلقوا أفواههم كما تفعل المحارة . أما إن أصغيت وكأنك غير مكترث أو متضايق حصلت على كل ما تريد من معلومات

— إنها معلومات ثمينة جعلت طريقنا واضحاً

— ماذا نصنع إذن ؟

— أرى أن نستأجر لنشاً ونهبط النهر فى أعقاب أورورا

— إن التعقب مستحيل . فهناك مخازن كثيرة للانشات يمكن أن يكون قد اختفى فيها فيما بين هـذا الموضع وجرينتش . وفيما وراء الكبرى متاهات كثيرة من أماكن الرسو بحيث تمضى أياماً وأياماً فى البحث بمفردك

— إذن نستعين بالبوليس ؟

— كلا . فانى لا أريد أن أستعين بأثلنى جونس إلا فى اللحظة الأخيرة . ومرادى أن أصل إلى لب هذا الموضوع من غير الاستعانة به بعد أن قطعنا كل هذا الشوط البعيد

— هل ننشر إعلاناً نطلب فيه معلومات من أصحاب المراسى ؟

— هذا أسوأ وأسوأ ! إن صاحبينا سيعلمان من الاعلان أننا نتعقبهما . فيغادران البلاد على الفور . بل أخشى أن يكونا قد غادرا البلاد الآن . لولا أن شعورهما بالأمان سيجعلهما لا يتعجلان . وأعتقد أن نشاط اثلنى جونس سيجعله يدلى برأيه فى القضية إلى الصحف . فيطمئن صاحبانا إلى اتجاه التحقيق وجهة خاطئة

وكان الزورق قد رسا عند ملبنك فسألته :

— إذن ماذا سنصنع ؟

— نركب عربة أجرة ونعود إلى البيت فنتناول طعام الافطار ثم ننام ساعة . لأنه مكتوب علينا أن نقضى ليلة أخرى على أقدامنا

وركبنا عربة صادفتنا . وجعلنا توبى فى وسطنا . وعند أول مكتب تلغراف استوقف هولمز العربة وقال لى :

— سنستبقى توبى لأنه قد ينفعنا أيضاً . وسأدخل لأرسل برقية

ولما عاد سألنى ونحن نستأنف السير :

— أتدرى لمن أرسلت برقيتى ؟

— لا أدرى

— أتذكر تلك الفرقة من الغلمان التى استخدمتها لجمع المعلومات فى قضية جيفرسون هوب ؟

— طبعا أذكرها

— لقد بعثت إلى رئيسها كى يوافينى وأستعين به . وأعتقد أنه سيكون عندى قبل أن ننتهى من إفطارنا

الفصل الرابع عشر

فرقة شارع بيكر

كانت الساعة الآن تقارب التاسعة . وقد بدأت أشعر برد فعل قوى بعد الإثارات المتلاحقة طوال تلك الليلة . كنت أعرج فى مشيتى ، وقد هدنى التعب ، وخيم الضباب على خلايا دماغى

ولا عجب فى ذلك . فليست عندى الحماسة التى تدفع صاحبى الى العمل بغير كلل . ولا أستطيع أن أنظر إلى المسألة باعتبارها مشكلة ذهنية مجردة . وأما فيما يتعلق بمصرع برثلوميو شولتو ، فانى لم أسمع عنه إلا القليل ، وهو لا يسر ولا يثير الرحمة أو العطف . بل أعترف أنى لم أشعر بحقد شديد على قاتليه

أما من جهة الكنز فهذه مسألة أخرى . فانه ـ أو جزء منه على الأقل ـ حق شرعى للآنسة مورستان . فطالما كانت هناك أقل فرصة لاسترداده ممن استولوا عليه ، فأنا مستعد لتخصيص حياتى لهذا الغرض

ولا يفوتنى طبعاً أن أذكر أن نجاحنا ـ إن قدر لنا النجاح ـ فى العثور على ذلك الكنز ربما قام حائلا بينى وبين الوصول اليها . ومع ذلك فلا شك أنها أنانية دنيئة لا تليق بمحب أن تتأثر جهودى بمثل ذلك الخاطر . فإن كانت لدى هولمز القدرة على الوصول إلى المجرمين ، فلدى دافع أقوى من ذلك عشر مرات للعثور على الكنز

وكان للحمام الذى أخذته فى شارع بيكر ، وتبديل الثياب الكامل ، أثرهما المدهش فى إنعاش قواى . فلما توجهت إلى حجرة جلوسنا وجدت

الإفطار معداً ، وهولمز يصب القهوة فى الفناجين . فبادرنى قائلا وهو يضحك مشيراً إلى صحيفة مفتوحة :

— هاهى ثمرات نشاط صديقنا جونس بادية فى حديثه إلى المخبر الصحفى النشيط . ولكنك طبعاً أصبت من القضية ما فيه الكفاية . ويحسن أن تتناول أولا نصيبك من البيض واللحم

فتناولت الصحيفة من يده وقرأت المنشور فيها تحت عنوان كبير هو « قضية غامضة فى نروود العليا » . وهو كما يأتى مع الإيجاز :

« فى نحو الساعة الثانية عشرة من منتصف ليلة أمس وجد المستر برثلوميو شولتو صاحب بوندتشيرى لودج فى نروود العليا ، مقتولا فى حجرته فى ظروف تدل على وقوع جريمة بشعة . وقد بلغنا أنه لم يعثر على آثار ظاهرة تنبئ عن مقاومة . ولكن اتضح اختفاء مجموعة ثمينة جداً من الجواهر الهندية كان القتيل قد ورثها عن والده

« وأول من اكتشف الوفاة هو المستر شرلوك هولمز وصديقه الدكتور وطسن اللذان توجها إلى هناك بدعوة من مستر ثاديوس شولتو شقيق المتوفى . ولحسن الحظ كان المستر اثلنى جونس المخبر الجنائى المعروف موجوداً بالمصادفة فى مركز بوليس نروود ، فخف إلى مكان الحادث فى مدى نصف ساعة من التبليغ به

« واتجهت فطنته المعروفة ومواهبه المدربة الوجهة الصحيحة فى الكشف عن الجناة . وانتهت تحرياته إلى القبض على شقيق المتوفى المدعو ثاديوس شولتو ، وعلى مشرفة الدار مسز بيرنستون ، وعلى ساق هندى اسمه لال راو ، وعلى بوابه من المصارعين اسمه ماك موردو

« ومن المؤكد أن اللصوص كانوا يعرفون البيت جيداً . لأن دقة مستر جونس البالغة فى الملاحظة بينت له أن اللصوص لم يكونوا ليستطيعوا الدخول من الباب أو من النافذة ، وإنما هم دلفوا إلى الحجرة من سقف البناء عن طريق باب مسحور يفضى إلى صندرة سرية تتصل بالحجرة التى وجدت فيها الجثة

« وهذه الحقيقة التى ندين بها لمهارة مستر جونس تثبت بصورة قاطعة

أن الجريمة لم تكن عملية سطو مرتجلة ؟

« والمنتظر أن تسفر التحقيقات عن اعتراف المقبوض عليهم أنهم اتفقوا فيما بينهم ودبروا ثم نفذوا القتل بقصد السرقة »

ولما رآنى هولمز فرغت من قراءة هـذا الكلام رفع وجهه عن فنجان القهوة باسماً وقال :

— أليس هذا بديعاً ؟ ما رأيك فى ذلك ؟

— رأيى أننا نحمد الله لأن فطنة مستر جونس المشهورة لم تهده للقبض علينا نحن الاثنين بما أننا كنا فى الدار ساعة الجريمة

— هذا ماخطر ببالى . بل إنى لا أضمن سلامتنا الآن إن أصابت جونس نوبة أخرى من نوبات الفطنة والنشاط ، فيستدرك ما فات

وفى هذه اللحظة رن جرس الباب رنيناً شديداً ، وسمعت مسز هدسن ربة الدار ترفع صوتها بما يشبه العويل ، فنهضت قائلا :

— بحق السماء يا هولمز ، أحسب نبوءتك صحت

— لا تخف . لم يصل الأمر بعد إلى هذا الحد من السوء . إنما هى فرقة المتشردين الصغار بقيادة هيجنز حضرت لتلقى الأوامر

وفى الحال سمعنا أصوات مجموعة من الأقدام الحافية تصعد السلالم ، وجلبة أصوات مرتفعة ، ثم اندفع نحونا حفنة من غلمان الشوارع المهلهلى الثياب . وأدهشنى أن أجد لديهم فكرة عن النظام رغم مظهرهم الفظيع . إذ سرعان ما وقفوا صفاً كالجنود . ثم تقدم أطولهم وأكبرهم سناً وقال فى رزانة مضحكة :

— تلقيت رسالتك يا سيدى وأحضرت الفرقة فى الحال . ثلاثة شلنات ونصف لثمن التذاكر

— هاك هى . وفى المستقبل يا هيجنز يكفى أن يتصلوا بك وحدك ولا لزوم لحضورهم . فأنت الذى تتلقى منى الأوامر بمفردك . لأنى لا أستطيع أن أسمح باقتحام البيت على هـذه الصورة . وعلى كل حال يحسن أن تسمعوا جميعكم الأوامر فى هذه المرة . إننى أريد أن أعثر على مكان لنش بخارى اسمه اورورا .



« وتناولت الصحيفة من يد هولمز وقرأت المنشور فيها عن تلك القضية الغامضة »

يملكه رجل اسمه موردخاى سمث . واللنش أسود به خطان أحمران . ومدخنته سوداء بها شريط أبيض . واللنش فى نهر التايمس فى مكان غير معلوم . فيجب أن يكون أحدكم عند مرسى مردخاى سمث امام ميلبنك ليخبرنا فى حالة وصول اللنش . . والباقون يقسمون أنفسهم للتنقيب على الشاطئين فى وقت واحد بكل دقة . ويجب أن تبلغنى الأنباء أولا بأول . مفهوم ؟

— نعم يا سيدى

— والأجور كالمعتاد . وسيظفر الغلام الذى يجد اللنش بجنيه إضافى . وها كم أجر يوم مقدماً . والآن انطلقوا

ونقد كلا منهم شلناً فاندفعوا يهبطون السلم . وقال لى هولمز وهو ينهض عن المائدة ويشعل بيبته :

— سيعثرون على اللنش إن كان طافياً على وجه الماء . فلديهم قدرة غريبة على الذهاب إلى كل مكان والتسلل والملاحظة . ولهذا أتوقع أن يأتونى بنتيجة شافية قبل هـذا المساء . وفى أثناء ذلك ليس أمامنا سوى أن ننتظر النتائج . فنحن لا نستطيع أن نستأنف المطاردة من غير أن نعثر على أورورا أو على مردخاى سمث

— سأطعم توبى بفضلات المائدة . ولـكن هل ستنام يا هولمز ؟

— كلا . لست متعباً . فان بنيتى غريبة التكوين . ولا أذكر أننى شعرت يوماً ما بالتعب من العمل . وإن كان الـكسل هو الذى يتعبنى بل يرهقنى . سأذهب وأدخن وأنا أفكر فى هـذه المسألة الغريبة التى ورطتنا فيها عميلتنا الحسناء . وليس الذى يحيرنى هو الرجل الأعرج . لأن عدد ذوى السيقان الخشبية محدود . ولـكن شريكه الآخر هو المحير حقاً

— عدنا مرة أخرى للرجل الآخر !

— لا أريد أن أطيل حيرتك فى أمره . ولهذا سأراجع معك ما لدينا من الوقائع عنه . فماذا تذكر من ذلك ؟

— قدم صغيرة . وأصابع متباعدة

— وهذا يدل على أنه لم يلبس فى حياته حذاء . كما نعلم أيضا أنه يجيد التسلق ، ويستعمل قذائف من الشوك المسموم . فماذا تستنتج ؟

— إنه متوحش ! لابد أنه من المخلوقات الهندية العجيبة

— هذا ما خطر لى فى أول الأمر . ولـكن هـذه الأقدام تختلف عن أقدام الهندوس الطويلة النحيلة . أما الهنود المسلمون فينتعلون الصنادل ولا يمشون حفاة . فاذا مشى أحدهم حافيا وجدت الأصابع متقاربة فيما عدا الابهام الذى يفصله عن بقية الأصابع شريط الصندل . وأما هذه القذائف فلا يمكن استعمالها إلا من آلة كالمزمار . فأين يمكن أن يوجد ذلك النوع من المتوحشين ؟

— ربما فى أمريكا الجنوبية

فمد هولمز يده وتناول مجلداً من دائرة المعارف وفتح صفحة قرأ فيها :

« جزائر اندمان . تقع على بعـد ٣٤٠ ميلا إلى شمالى سومطرا فى خليج البنغال . مناخها رطب . شواطئها مرجانية ، حولها سمك القرش . وبها سجن كبير (ليمان) . والأهالى الأصليون ربما كانوا أصغر أقزام فى العالم بعد البوشمان الإفريقيين . ومتوسط طول الشخص البالغ بمتر . ولـكن يوجد من البالغين من هم أقصر من ذلك بكثير . وهم قوم فيهم شراسة طبيعية . وإن كان من الممكن أن يخلصوا الود بشكل غير مألوف لمن ينجح فى كسب قلوبهم . واشكالهم قبيحة وملامحهم ملتوية وجماجمهم مشوهة . ويمتـازون على الخصوص بأيد وأقدام متناهية فى الصغر . يهاجمون البيض بعصى لها رؤوس من الحجر . أو يقذفونهم بقذائف مسمومة . ثم يأكلون لحومهم »

وبعد أن أقفل هولمز المجلد رفع رأسه وقال لى :

— قوم فى غاية اللطف والحق يقـال يا عزيزى وطسن ! وأظن أنك لاحظت تلك العصا التى تنتهى برأس من الحجر والتى وجدت على المائدة بجوار القتيل . فلا شك أن جوناثان سمول الذى كان سجيناً فى جزائر اندمان قد استعان بحليف من هذا الطراز البديع . ولـكنى أراك تغفو وأنا أتكلم . فارقد على هذه الأريكة وسأحاول أن أساعدك على النوم العميق بالعزف على القيثارة

وكان عزفه من البراعة بحيث استغرقت على الفور فى أحلام رأيت فيها وجه مارى مورستان يشرق بالابتسام ...

الفصل الخامس عشر

رحلة فى الفجر

كان الوقت متأخراً بعد الظهر حينما استيقظت من نومى وقد استرددت قواى وانتعش تفكيرى . وكان شرلوك هولمز مازال جالساً حيث تركته بالضبط فيما عدا أنه ألقى قيثارته جانباً واستغرق فى كتاب . فلما تحركت نظر الى ولاحظت أن وجهه قاتم مضطرب . وقال لى :

— لقد نمت نوماً عميقاً . وخفت أن يوقظك كلامنا

— لم أسمع شيئاً . هل وصلتك أخبار جديدة إذن ؟

— كلا للأسف . وأنا أعترف أننى مندهش وأشعر بخيبة أمل . وكنت أتوقع وصول شىء معين قبل هذه اللحظة . ولكن هيجنز كان هنا منذ قليل ليرفع تقريره . فقال لى إنه لم يعثر على أثر للنش . وهذا فشل مثير ، لأن كل ساعة لها أهميتها الكبيرة

— هل أستطيع أن أصنع شيئاً ؟ لقد استرددت نشاطى الآن تماماً وأصبحت على تمام الاستعداد لليلة أخرى من العمل

— كلا لا نستطيع أن نصنع شيئاً . ليس أمامنا سوى أن ننتظر . فلو خرجنا نحن فربما أتت الرساله بالعثور على اللنش فى غيبتنا ، فيكون هذا سبباً فى التعطيل . وتستطيع أنت أن تصنع ما تشاء أما أنا فسأبقى هنا للحراسة مستعداً لأول اشارة

— إذن أسرع أنا الى كامبرويل لزيارة مسز سيسيل فورستر . فقد طلبت منى بالأمس أن أزورها ووعدتها بذلك

فسألنى هولمز وقد لمعت فى عينيه ابتسامة خبيثة :

— تزور مسز سيسيل فورستر ؟

— والآنسة مورستان أيضاً بالطبع . فهما متلهفتان على معرفة الأخبار

— لو كنت فى مكانك لما أخبرتهما بشىء كثير . فالنساء لايمكن الوثوق بهن كل الثقة . . . . حتى خيارهن

فلم أعلق على هذا الرأى المتطرف بل قلت :

— سأعود الى هنا فى خلال ساعة أو ساعتين

— وهو كذلك . حظ سعيد . ولكن أرجو اذا كنت ستعبر فى طريقك النهر أن تعيد توبى الى صاحبه . فلا أظن أننا من المرجح أن نحتاج اليه الآن

فأخذت الكلب معى وتركته لدى صاحبه وأعطيته نصف جنيه ذهباً ثم توجهت من حارة بنشين الى كامبرويل ، حيث وجدت الآنسة مورستان متعبة قليلا بعد مغامراتها الليلية ، ولكنها متشوقة جداً لسماع آخر الأنباء وكذلك كانت مسز فورستر شديدة التطلع . فأخبرتهما بكل ماصنعنا ، مغفلا بالطبع المواضع البشعة من المأساة . فحين تكلمت عن وفاة المستر شولتو لم أذكر شيئاً عن طريقة مصرعه على وجه الدقة . ومع هذا التهوين كان فيما رويته الكفاية لازعاجهما وإثارة دهشتهما . فصاحت مسز فورستر :

— يالها من قصة ! سيدة مغبونة ، وكنز قيمته نصف مليون ذهباً ، وآكل لحوم البشر الأسود ، ووغد له ساق من الخشب !

فأضافت الآنسة مورستان وهى ترمقنى بنظرة مشرقة :

— وهناك أيضاً فارسان شهمان يخفان لنجدتها

— الحق ياماري أن حظك يتوقف على ثمرة جهودهما . ولا أظنك مع هذا مكترثة حتى الاكتراث لما يجرى . تصورى ما يترتب على هذا الثراء الفاحش ، بحيث يكون العالم كله تحت قدميك !

وشعرت بفرح يهز قلبي لما لاحظته من أنها لم تبتهج كثيراً لهذه التصورات والآمال ، بل على العكس أومأت برأسها فى كبرياء ، كأن هذه الأمور لا تعنى فى نظرها شيئاً ذا بال ، وقالت :

— قلقى كله من أجل مستر ثاديوس شولتو . أما ماعدا ذلك فليست له

أى أهمية . لأنه فى الواقع سلك سلوكاً مشرفاً ورقيقاً على طول الخط . ومن واجبنا ان نخلصه من هذا الاتهام الفظيع الظالم

وسحرنى الحديث فلم أشعر بمرور الوقت ، ولم أغادر كامبرويل إلا عند الأصيل . وكان الظلام مطبقاً ساعة عودتى الى البيت

وعند دخولى رأيت كتاب صاحبي وبيبته بجوار مقعده . أما هو فكان قد اختفى . فتطلعت أفتش عن مذكرة ربما تركها لى ، فلم أجد شيئاً من ذلك ، فقلت لمسز هدسون حين صعدت لاغلاق النوافذ :

— أظن مستر شرلوك هولمز غادر الدار ؟

فأجابتنى وهى تخافت من صوتها بصورة ذات مغزى :

— كلا ياسيدى . بل ذهب الى حجرته . وأنا فى الواقع قلقة على صحته

— ولماذا يامسز هدسون ؟

— لما يبديه من غرابة . فبعد أن خرجت سيادتك جعل يتمشى ويتمشي جيئة وذهاباً وذهاباً وجيئة الى أن أعيانى وقع خطواته المتصل . ثم سمعته يكلم نفسه بصوت مسموع . وكلما رن جرس الباب أسرع الى رأس السلم يسألنى من الطارق . وها هو الآن قد أغلق على نفسه حجرته . ولكنى أسمعه يتمشى كسابق شأنه . فعسى ألا يكون على شفا المرض . وغامرت بالتحدث اليه فى شأن تعاطى دواء مهدىء . فنظر الى ياسيدى نظرة فظيعة ، حتى أننى لا أعرف الى الآن كيف خرجت من الحجرة !

— لا أعتقد أن هناك مبرراً لقلقك يامسز هدسون . فكثيراً ما رأيته على هذه الصورة من قبل . وكل ما هناك أن فى دماغه مسألة تتعبه ولا تدع له مجالا للراحة الى أن يجد لها حلا

والحقيقة أننى حاولت أن أخفف وقع الحالة على ربة الدار الموقرة ولكننى كنت فى الوقت نفسه غير مستريح ، لأن وقع خطواته المتواتر ظل مستمراً برتابته الممزقة للأعصاب ساعات الليل الطويلة . فأدركت أن أعصابه متمردة على الجمود الذى فرضه الموقف عليه الى الصباح

وعلى مائدة الافطار بدا لعينى فى حالة شديدة من الإعياء ، وعلى وجنتيه احتقان أشبه باحتقان الحمى ، فقلت له

— انك ترهق نفسك يارجل . فقد سمعتك تتمشى طول الليل

— لم أستطع أن أنام . فهذه المشكلة الجهنمية تأكل ذهنى . ومن المفجع حقاً أن تقف عقبة كهذه فى طريقنا بعد أن تغلبنا على جميع العقبات الأخرى فأنا أعرف أشخاص الجناة ، واللنش ، وكل شىء ومع هذا لا أتلقى أخباراً وقد أطلقت عملاء آخرين واستعملت كل وسيلة فى استطاعتى . وتم تفتيش شاطئى النهر كليهما . ولكن لا أخبار . ومسز سمث لم تسمع شيئاً عن زوجها حتى أوشكت أن أعتقد أن اللنش غرق بمن فيه ، لولا وجود ما ينقض ذلك

— ولماذا لاتكون مسز سمث قد ضللتنا ؟

— كلا . هذا مستبعد لأنى قمت بتحريات واتضح وجود لنش بهذه الصفة

— لعله اتجه فى الناحية الأخرى من النهر

— وهذا أيضاً فكرت فى امكانه . وكلفت فرقة بالبحث فى ذلك الاتجاه لناية ريتشموند . فاذا لم تصلنا أنباء اليوم سأضطر للتحرك بنفسى للبحث عن الرجلين لا عن اللنش . ولكننا بالتأكيد سنسمع شيئاً اليوم

بيد أننا لم نسمع أى كلمة لامن هيجنز ولا من العملاء الآخرين . ونشرت معظم الصحف مقالات عن مأساة نوود . وكان الجميع قساة على ثاديوس شولتو باعتباره قاتل أخيه

ولم تنشر أى تفاصيل أخرى سوى أن التحقيق سيبدأ فى اليوم التالى . وعند الغروب ذهبت الى كامبرويل كى أبلغ السيدتين انه لا جديد . وعند عودتى من هناك وجدت هولمز فى حالة ضيق شديد وثبوط همة . حتى أنه لم يكن يرد على أسئلتى . وراح يشغل نفسه بتحليلات كيماوية تصاعدت منها أبخرة لها رائحة كريهة طردتنى من الحجرة

وحتى الساعات الباكرة من الصباح كنت أسمع وأنا فى حجرتى صليل أنابيب الاختبار التى أنبأتنى عن استمراره فى تجاربه

وعند الفجر صحوت مذعوراً لأراه واقفاً بجانب فراشى وقد ارتدى حلة بحار رثة ، وربط حول عنقه منديلا خشناً ، وقال لى :

— سأذهب الى النهر يا وطسن . فقد قلبت المسألة فى ذهنى طويلا ولا أجد لها الا تفسيراً واحداً يستحق أن نجربه

— فى امكانى طبعا آن آتى معك ؟

— كلا . فوجودك هنا أفيد كى تمثلنى وتتلقى الأنباء التي ستصل أثناء النهار وأريد منك أن تفض جميع الرسائل والبرقيات ، وأن تتصرف حسب رأيك عند وصول أى خبر . فهل أستطيع أن أعتمد عليك ؟

— بكل تأكيد

— وأخشى أنك سوف لاتستطيع أن تتصل بى تلغرافياً . لأننى لا أدرى على وجه التحديد أين يمكن أن تجدنى . وإذا حالفنى الحظ سوف لا يطول غيابى . ولكن سأحصل على أنباء بأى شكل قبل عودتى

▭

وحتى ساعة الافطار لم أسمع شيئاً عنه . فلما جلست الى المائدة فتحت صحيفة اللواء فوجدت اشارة جديدة الى القضية

— فيما يختص بمأساة نروود العليا ، عندنا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن هذا الموضوع يتجه الى التعقيد والابهام أكثر مما كان مظنوناً فى مبدأ الأمر . فقد ظهرت أدلة تثبت استحالة اشتراك مستر ثاديوس شولتو فى هذه الجناية بأى شكل من الاشكال . ولهذا أطلق سراحه هو ومشرفة الدار مسز بيرنستون أمس مساء . والمعتقد أن لدى البوليس خيوط تفضى الى الجناة الحقيقيين ، والمأمول فى همة مستر اثلنى جونس من رجال سكوتلاند يارد أن يستغل هذه الخيوط بما عرف فيه من نشاط وحنكة . ومن المنتظر أن يقبض على مزيد من الأشخاص فى أى لحظة

وسرنى كثيراً اطلاق سراح صاحبنا شولتو . وان كنت لا أدرى ما هى هذه الخيوط الجديدة . وغلب على ظنى أنها الفاظ محفوظة يتغنى بها البوليس كلما وقع فى ورطة . وألقيت الصحيفة من يدى فوق المائدة . وإذا عينى تقع على إعلان فى العمود المخصص للاعلان عن الكوارث والاستغاثات

— مفقود بحار اسمه موردخاى سمث . وكذلك ابنه جيم . غادرا مرسى سمث فى نحو الساعة الثالثة من صباح الثلاثاء الماضى فى لنش بخارى اسمه أورورا ، ولونه أسود به خطان أحمران والمدخنة سوداء وبها شريط

أبيض . وسيدفع مبلغ خمسة جنيهات لأى شخص يستطيع الأدلاء بأى معلومات مفيدة فى العثور على المفقودين ، وذلك لمسز سمث فى مرسى سمث أو فى نمرة ٢٢١ مكرر بشارع بيكر

وأدركت على الفور أن هذا الاعلان من صنع شرلوك هولمز . فالعنوان المذكور فى الاعلان بشارع بيكر دليل كاف على ذلك . ووجدتها حيلة بارعة ، لأن الهاربين يمكن أن يطالعوا هذا الاعلان فلا يرون فيه أكثر من القلق الطبيعى الذى تحس به زوجة لفقد زوجها أو اختفاء آثاره

وكان هذا النهار طويلا مملا . فكلما طرق الباب ، أو سمعت خطوة مرتفعة فى الشارع ، خيل الى أن هولمز عائد ، أو أن أحداً جاء تلبية لاعلانه

وحاولت أن أقرأ . ولكن أفكارى ظلت تشرد وراء المجرمين اللذين يشغلان بالنا . ورحت أتساءل هل هناك ثغرة تسرب منها الخطأ الى البناء المنطقى الاستنتاجى الذى أقامه صديق . وهل ليس من الممكن أن تكون كل النظرية التى صنعها قائمة على مقدمات وهمية . ولا سيما أن الحياة الواقعية ليست دائماً متمشية مع المنطق العقلى المجرد

ولكن جميع حلقات تلك السلسلة المنطقية تشكلت وتكونت وتشابكت بين سمعى وبصرى . ولست أجد فيها عيباً



الفصل السادس عشر

زائر غامض

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر سمعت دقة عالية من جرس الباب . ثم صوتا مرتفعاً آمراً فى البهو . وكم كانت دهشتى عظيمة حينما صعد الى حيث كنت أجلس فى قاعة الاستقبال شخص خطير الشأن ، هو مستر اثلنى جونس بلحمه ودمه !

وكانت لهجته فى هذه المرة تختلف كل الاختلاف عن لهجة ذلك الأستاذ الواثق من سداد رأيه حين تناول قضية نروود العليا . فهو فى هذه المرة متواضع وديع ، بل يكاد ينزل الى حد الاعتذار . فبدأنى بقوله :

— طاب يومك يا سيدى طاب يومك ، مستر شرلوك هولمز خرج فيما أظن ؟

— نعم . ولست متأكداً متى سيعود ، ولكن ربما سمح لك وقتك بالانتظار . اجلس فى هذا المقعد وجرب سيجاراً من هذه

فمسح وجهه بمنديل كبير أحمر وقال :

— شكراً لك . لا مانع عندى

— هل لك فى قدح من الويسكى والصودا ؟

— نعم . نصف قدح . إن الجو حار بالنسبة لهذا الفصل من السنة وقد تعبت كثيراً وأقلقتنى هذه القضية . أنت تدرى طبعاً نظريتى فيها ؟

— سمعتك تعرضها

— لقد اضطررت أمام الوقائع أن أعيد النظر فيها . وكنت قد أحكمت خيوط الشبكة حول مستر شولتو عندما أفلت من فتحة فى وسطها . إذ تمكن

من اثبات وجوده وقت الجريمة إثباتاً لا محل لنقده فى مكان بعيد عن مسرح الحادث . فمنذ غادر حجرة أخيه كان تحت سمع شهود عدول هنا أو هناك . إذن لا يمكن أن يكون هو الذى تسلق السقوف ودخل من الباب المسحور . انها فى الواقع قضية حالكة تكتنفها الظلمات. ومركزى الأدبى كمحترف أصبح فى كفة الميزان . وكم يسعدنى أن أتلقى بعض العون

— كلنا نحتاج للعون أحياناً

— ان صديقك مستر شرلوك هولمز رجل مدهش يا سيدى. وقد شهدته بنفسى يتناول قضايا كثيرة غامضة . ولكنه لم يفشل فى واحدة منها . قد يكون شاذاً فى وسائله . متسرعاً فى الوثوب الى النتائج وتكوين النظريات . ولكنه على العموم مخبر ماهر . وقد تلقيت برقية منه هذا الصباح فهمت منها أنه عثر على طرف خيط فى هذه القضية . وهاك البرقية

وأخرج من جيبه البرقية فأعطانى إياها وكانت تحمل توقيت الثانية عشرة ظهراً ومرسلة من مكتب بوبلر . ونصها كالآتى :

— اذهب الى شارع بيكر فوراً . ان كنت لم أعد فانتظر عودتى . أنا فى آثار العصابة . تستطيع أن تأتى معنا الليلة إن أردت حضور ختامها

فلما قرأت البرقية قلت له :

— هذا كلام يبشر بالخير . فلابد أنه عثر على طرف الخيط

— من الجائز أن يتضح له خطأ حسابه . ولكن من واجبى بوصفى من خدام القانون ألا أترك فرصة تفلت منى . وها هو طارق بالباب قد يكون هو

وسمعنا بعد ذلك خطوات ثقيلة تصعد السلم فى تخبط . ثم صوت أنفاس لاهثة . وكان الصاعد يتوقف بين كل خطوتين كأن الصعود أشق عليه من طاقته . وأخيراً دخل علينا

وكان شكله يتفق مع طريقة صعوده . فهو رجل عجوز ، عليه معطف بحرى مهلهل ، ومن تحته سترة من الجلد مزررة الى الرقبة ، وظهره مقوس ، وركبتاه ترتجفان ، وتنفسه يدل على إصابته بالربو . وكان كتفاه يهتزان وهو متكىء على عكازه الغليظ . وحول عنقه منديل ملون . أما وجهه فلم أتبين منه الا عينين سوداوين ثاقبتين يعلوهما حاجبان أبيضان كثيفان ، ومع أنه فى تلك

الحالة إلا أنى توسمت فيه رئيس بحارة جار عليه الفقر والسن . فسألته :

— ماذا تريد يا صاح ؟

فنظر فيما حوله ببطء على طريقة المتقدمين فى العمر وقال :

— هل مستر شرلوك هولمز هنا ؟

— كلا . ولكنى بالنيابة عنه . وتستطيع أن تخبرنى أى رسالة تخصه

— لا أخبر بها أحداً سواه

— ولكنى قلت لك إننى بالنيابة عنه . أهى بخصوص مردخاى سمث ؟

— نعم . فأنا أعرف مكان اللنش . وأعرف أين الأشخاص الذين يبحث عنهم . وأعرف أيضاً مكان الكنز . أعرف كل شىء

— إذن أخبرنى وسأبلغه

— سأخبره هو شخصياً

— إذن يجب أن تنتظر عودته

— كلا . لست مستعداً أن أضيع يوماً كاملا من أجل أى إنسان . ومادام مستر هولمز ليس هنا ، فعلى مستر هولمز أن يبحث بنفسه عما يريد . ولا يهمنى أن أبقى معكما . ولا أريد كذلك أن أقول شيئاً لكما

واتجه نحو الباب . بيد أن اثلنى جونس تصدى له :

— انتظر قليلا يا صاحبى . لديك معلومات مهمة فيجب ألا تنصرف . سنبقيك هنا سواء شئت أو لم تشأ إلى أن يعود صديقنا

وحاول العجوز أن يجرى ليخرج من الباب . ولكن اثلنى جونس وقف عند الباب بكتفيه العريضين ، فأيقن العجوز من عقم المقاومة ، وصاح وهو يدق الأرض بعصاه فى غضب شديد :

— هذه والله معاملة جميلة . أتيت إلى هنا لأرى سيداً ، وإذا أنتما اللذان لم أر وجهكما من قبل تمسكانى وتعاملانى بهذه الخشونة !

فقلت له أحاول تهدئته :

— لن تخسر شيئاً . وسنعوضك بسخاء عن ضياع وقتك . فاجلس على هذه الأريكة وسوف لا يطول انتظارك

فجلس الرجل متأففاً ودس وجهه بين راحتيه . وعدت أنا وجونس إلى التدخين والحديث . وفجأة قرع أسماعنا صوت هولمز يصيح :

— أعطيانى على الأقل سيجاراً

فقفزنا كلانا من مقعدينا . وإذا هولمز جالس بقربنا يضحك . فصحت

— هولمز ! أنت هنا ؟ ولكن أين الرجل العجوز ؟

فأجابنى وهو يمد إلىّ يده بحفنة من الشعر الأبيض المستعار :

— ها هو رجلك العجوز ! ها هو بشاربيه وحواجبه وفروة رأسه . كنت أعتقد أن تنكرى جيد ولكنى لم أكن أتوقع أن يصمد لهذه التجربة

وسر جونس لهذه المزحة كثيراً ، وراح يهنىء هولمز . فأشعل هولمز سيجاراً :

— قضيت النهار كله فى العمل . ولما كان عدد كبير من طبقات المجرمين يعرفنى فى الوقت الحاضر ، لم أجد بداً من التنكر . هل تلقيت برقيتى يا جونس ؟

— نعم . ولهذا جئت

— وكيف حال قضيتك ؟

— شر حال . اضطررت أن أطلق سراح سجينين من الأربعة . وليس عندى دليل ضد الاثنين الباقيين

— لا بأس . سنعوضك عنهما باثنين من عندنا . ولكن يجب عليك أن تضع نفسك تحت إمرتى . وسأترك لك طبعاً ثمرة الانتصار الرسمية . ولكن يجب أن تسير على النهج الذى أوضحه لك تماماً . هل اتفقنا ؟

— تماماً . ما دمت ستسلمنى الرجلين

— إذن يجب أولا أن تضع تحت يدى لنشاً بخارياً تابعاً للبوليس . بحيث يكون عند سلالم وستمنستر فى الساعة السابعة

— هذا أمر ميسور . ففى هذه المنطقة لنش على أهبة الاستعداد باستمرار . ولكن اسمح لى أن أذهب وأتصل تليفونياً زيادة فى التأكيد

— واطلب فى الوقت نفسه رجلين من القوة بمكان فربما تحدث مقاومة

— سيكون فى اللنش اثنان أو ثلاثة . وماذا أيضا ؟

— عندما نقبض على الرجلين سنحصل على الكنز . وأعتقد أنه مما يسر صديقى هذا الحاضر هنا أن يأخذ صندوق الكنز إلى السيدة الشابة التى لها فيه حق النصف شرعا وقانونا . فلتكن هى أول من يفتحه . وهذه مجاملة من حق وطسن علىّ . أليس كذلك يا وطسن ؟

— إنه لمن دواعى السرور العظيم لى

فقال جونس وهو يهز رأسه :

— هذا مخالف للأصول . ولكن المسألة من أولها لآخرها مخالفات . ولهذا لا أشترط سوى أن يسلم الكنز بعد ذلك للسلطات إلى أن يتم التحقيق الرسمى

— طبعا . وهناك مسألة أخرى . فأنا أريد أن أعرف بعض التفاصيل من فم جوناثان سمول نفسه بعد القبض عليه . فأنا كما تعلم أحب أن أراجع خطوات القضايا التى أتولاها لأتأكد من مطابقة استنتاجاتى لصميم الواقع . فهل هناك مانع من عقد تلك الجلسة بصفة غير رسمية هنا فى بيتى أو فى أى مكان آخر مادام تحت الحراسة الكافية ؟

— أنت سيد الموقف . ولم يكن عندى دليل على وجود شخص بهذا الاسم . فاذا تمكنت من القبض عليه فلا أرى وجها لمنعك من الاجتماع به

— هل اتفقنا إذن ؟

— كل الاتفاق . هل هناك شىء آخر ؟

— نعم . فأنا مصمم أن تتعشى معنا . فسيكون العشاء جاهزاً بعد نصف ساعة ، وعندى الليلة محار وأنواع أخرى من الأسماك الفاخرة . وستكون هذه فرصة تتعرف فيها إلى مواهبى فى كرم الضيافة

— وهذا الشرط اعتراضى عليه أقل بكثير من اعتراضى على الشروط السابقة

الفصل السابع عشر

مطاردة فى النهر

كان العشاء ممتعاً يسود جوه المرح . فهولمز يعرف كيف يتقن السمر حينما يشاء ، وقد شاء تلك الليلة . وخيل إلىّ انه فى حالة تجلى . لأني لم أره من قبل فى مثل ذلك الحبور والانشراح . وجعل يتنقل بين أفانين الموضوعات قافزاً من ألعاب السحر الى خزف القرون الوسطى الى أنواع الكمان العالمية الشهرة ، الى بوذية أهل سيلان . وهو فى كل موضوع من هذه الموضوعات المتباينة كل التباين يتحدث حديث الخبير

أما اثلنى جونس فأثبت انه يمكن أن يكون ظريفاً حينما يكون الطعام جيداً ، ولم يحاول أحد منا نحن الثلاثة أن يشير أثناء الطعام الى القضية التي جمعتنا من قريب أو بعيد

ولما رفعت المائدة نظر هولمز الى ساعته ثم ملأ أكوابنا بنبيذ بورتو الفاخر ثم رفع كأسه قائلا :

— لنشرب نخب نجاحنا فى مهمتنا الصغيرة هذه الليلة . فقد حان أن ننطلق . هل معك مسدس يا وطسن ؟

— عندى مسدسى القديم حين كنت فى الجيش . إنه فى درج مكتبي

— من الخير أن تأخذه معك . إذ يحسن أن نكون على أهبة الاستعداد . وإنى أرى العربة واقفة بالباب . فقد أمرت الحوذى أن يأتى فى منتصف السابعة

وركبنا العربة فوصلنا الى وستمنستر بعيد الساعة السابعة بقليل . وعند المرسى وجدنا لنش البوليس البخارى فى انتظارنا . ففحصه هولمز بنظرة ثم سأل أثلنى جونس :

— هل فيه ما يدل على انه تابع للبوليس ؟

— نعم . هذا المصباح الأخضر الجانبي

— إذن انزعه من مكانه

وتم هذا التغيير ثم ركبنا ورفعت المراسى . وجلسنا نحن الثلاثة فى المقدمة، وجلس بحار عند السكان (الدفة) . وبحار آخر يقود الآلات . وقبع رجلان قويان من رجال المباحث كقوة للأمن . وسألنا جونس :

— الى أين ؟

— الى البرج . ومرهم يقفوا تجاه حوض سفن جا كوبسون

ولا شك ان اللنش كان سريعاً جداً . وقد انطلق بنا مارقاً كالسهم بين صفوف السفن المثقلة بالبضائع . وابتسم هولمز راضياً عند ما حاذينا باخرة نهرية قوية كانت تمخر الأمواج ثم لم نلبث أن خلفناها وراءنا وقال :

— ينبغى بهذه السرعة أن نكون قادرين على اللحاق بأى سفينة تمخر مجرى هذا النهر

— ليس تماماً . ولكن قل وجود لنش يسبق لنشنا هذا

— يجب على كل حال أن ندرك أورورا . وهى من اللنشات المشهود لها بالسرعة الفائقة . وسأبين لك الآن يا وطسن طبيعة الموقف . إنك تذكر الى أى حد بلغ بى الضيق لأن هذه القضية اعترضتنا ؟

— نعم أذكر

— لقد حاولت إراحة ذهنى بالانغماس فى تحاليل كيماوية . وقد أخذت فى ذلك بنصيحة أحد كبار رجال السياسة الذى قال ان تغيير نوع العمل هو أحسن نوع من أنواع الراحة . والأمر كذلك فعلا . فلما فرغت من تحليل المادة الصعبة التى فرضتها على نفسى عدت الى مشكلة شولتو ودرست القضية من جديد . وكان الغلمان فى فرقة هيجنز قد فتشوا شاطىء النهر صعوداً وهبوطاً من غير نتيجة . فاللنش ليس له وجود فى مرسى من المراسى . كما انه لم يعد الى قاعدته . وأوشكت أن أعتقد أنهم أغرقوا الزورق لإخفاء آثار هروبهم . لأن هذا الفرض ينبغى الأخذ به إذا يئسنا تماماً من كل الفروض الأخرى . ولم يمنعنى

من الأخذ بهذا الفرض إلا كونه ثمرة ذكاء لا يتوفر إلا لشخص ربى تربية راقية ، الأمر الذى لا يتوفر فى جوناثان سمول المحدود التفكير رغم دهائه ومكره . ففكرت فى ان سمول بما انه قضى فى لندن بعض الوقت ليراقب عن كثب بوندتشيرى لودج ، فليس من المحتمل أن يغادر العاصمة فى أى لحظة من غير أن يحتاج الى بعض الوقت ، ولو يوماً واحداً ، ليرتب أحواله قبل الرحيل نهائياً

— يبدو لى ان هذا الاحتمال ضعيف بعض الشىء . والأرجح عندى انه كان قد رتب أموره على الرحيل فى أى لحظة

— أخالفك فى الرأى ياوطسن . فمحل اقامته فى لندن يصلح على الدوام نقطة ارتكاز . ينسحب اليها عند حدوث أى تعقيدات ليختفى عن الأنظار الى أن ينجلى الموقف . والأشخاص الذين على شاكلته يحسبون دائماً حساب خط الرجعة لأنهم متمرنون على التدابير الاجرامية

— هذا معقول ...

— أضف الى هذا ان شريكه الغريب الشكل لا بد أن يتوافر له مخبأ يخفيه تماماً عن الأنظار ، لأنه جدير أن يسترعى الانتباه ويثير لغطاً إن ظهر للناس فى أى مكان . وسرعان ما يربط الناس بينه وبين الجريمة التي تشغل الصحف فيفتضح الأمر كله

— وهذا أيضاً معقول

— فهما إذن قد خرجا لتنفيذ جريمتهما تحت جنح الظلام . ولا بد قد دبرا الأمر ليعودا الى قاعدتهما السرية قبل انبلاج الصبح

— أوافقك على هذا الاستنتاج

— نحن نعلم من مسز سمث ان الساعة كانت الثالثة صباحاً حينما طرق الأعرج باب زوجها ليركب اللنش . وهى ساعة من ساعات الفجر لا تنقضى عليها ساعة أخرى حتى يكون العمال على الشواطىء وفى الطرقات . إذن لا يمكن أن يكون اللنش قد ذهب بعيداً فى أول مرحلة . ولهذا أيضاً لم يأخذ سمث من الفحم قدراً كبيراً . وهو قد دفع لسمث ما يكفى لاغلاق فمه . واحتجز اللنش

للقيام بعملية الفرار الأخيرة . وفى الوقت نفسه نقل الكنز الى المخبأ السرى القريب . حيث يقضى ليلتين ويقرر على ضوء ما تنشره الصحف خطوته الأخيرة ، وهى ركوب سفينة من السفن التى تقلع الى المستعمرات أو الى أمريكا تحت جنح الظلام

— واللنش ؟ لا يمكن أن يكونا أخذاه معهما الى البيت

— هذا بديهى . ولهذا قررت ان اللنش لابد أن يكون فى مكان ما غير بعيد من قاعدته الأصلية . وإن كنا لم نره

— هذا هو المعقول

— ولهذا وضعت نفسى فى مكان سمول . وحاولت أن أنظر الى الموقف بعقليته وإدراكه . فهو قد أدرك ان إعادة اللنش أو إبقاءه فى مرسى مكشوف قد يسهل على البوليس عملية المطاردة . فكيف يمكن أن يوفق بين إخفاء اللنش وبين بقائه تحت يده فى كل لحظة

— هذه مشكلة

— لقد حاولت أن أجد لها حلا لو كنت فى موضعه . فوصلت الى طريقة واحدة . وهى أن أدخل اللنش فى حوض جاف مما يستخدم لاصلاح السفن . وأطلب إدخال تعديل تافه . وأنت تعلم ان هذه الأحواض مغطاة . ومعنى ذلك ألا يظهر للنش أثر طول المدة المطلوبة . وفى الوقت نفسه يمكن استرداده فى أى ساعة

— إن هذا يبدو من البساطة والسهولة بمكان

— ومثل هذه الأمور البسيطة جداً هى التى لا يفطن اليها الانسان إلا بصعوبة شديدة . ولهذا قررت ان أبدأ العمل من جديد على أساس هذه الفكرة . فارتديت الثياب التنكرية ورحت أطوف بأحواض إصلاح السفن على شاطىء النهر أسأل عن عمل . ولم أعثر على شىء فى خمسة عشر حوضاً . ولم أيأس . وفى الحوض السادس عشر ، وهو مملوك لجا كوبسون علمت ان اللنش أورورا سلم لهم منذ يومين بواسطة رجل أعرج لعمل إصلاح صغير فى الدفة . وقرر لى رئيس العمال انه لم يجد فى دفته أى خلل . وانه لا ينتظر إلا حضور صاحبه لتسلمه

— هذا توفيق ضخم

— وفى هذه اللحظة أقبل موردخاى سمث وهو يترنح من الخمر . وما كنت لأعرف اسمه لولا حالة السكر الفظيع التى جعلته يخور مزهواً باسمه ولقبه ولنشه الذى لا يلحقه لنش على النهر . وجعل يطالب بتجهيز أورورا للانطلاق فى رحلة طويلة فى الساعة الثامنة مساء بالضبط كطلب مستأجره العظيم الكريم . ثم راح يدلل على كرم المستأجر بتوزيع الشلنات على العمال بالنيابة عنه . ثم خرج يترنح فتبعته عن بعد . فاذا به يدخل حانة ليستأنف الشراب . فعدت أنا الى الورشة . وفى الطريق التقيت صدفة بأحد غلمان فرقة هيجنز . فعينته ديدباناً على اللنش عند الشاطىء . وعليه أن يلوح بمنديل أبيض عند ما تقوم أورورا . وسنكون نحن بعيدين عنه فى وسط الماء . وعلى هذا نتمكن من وضع يدنا بسرعة على اللنش والبحارة والركاب وصندوق الكنز وكل شىء

فقال جونس متشككا :

— لقد رتبت كل شىء بدقة متناهية . والله أعلم هل نحن وراء الأشخاص المقصودين المطلوبين أم لا . ولو كنت أنا فى مكانك لكنت أكثر حرصاً

— ماذا كنت تصنع ؟

— كنت أضع قوة كبيرة من البوليس فى ورشة جا كوبسون كى أقبض على الأشخاص بمجرد توجههم الى هناك

— أى انك كنت لا تقبض عليهم أبداً !

— كيف ؟

— إن سمول رجل ماكر . ولا شك انه سيرسل كشافاً قبل أن يذهب بالكنز . وعند أى بادرة من الشك يختفى مدة أسبوع آخر

— كان فى إمكانك أن تلازم مردخاى سمث فيقودك الى مكمنهم

— لا أعتقد ان سمث يعرف هذا المكمن . فكل ما يهمه المال والشراب . وهو يتلقى الأوامر فى الحانة مثلا . لقد فكرت فى جميع الاحتمالات ووجدت هذا الترتيب أقربها الى التوفيق

الفصل الثامن عشر

نهاية الوحش

كان اللنش يخترق بنا الجسور والكبارى بأقصى سرعة أثناء هذا الحوار. ولما فرغنا من مبانى العاصمة كان آخر أشعة الشمس يذهب قبة كنيسة القديس بولس. وكان المساء قد حل عندما وصلنا الى البرج. فقال هولمز مشيراً الى مجموعة من الأشرعة والصوارى :

— هذا هو حوض جاكوبسون للاصلاح

وأخرج من جيبه منظاراً ليلياً مكبراً وراح ينظر إلى الشاطىء

— هذا هو الديدبان فى مكانه. ولكنى لا أرى المنديل فى يده

فاقترح جونس أن نبتعد قليلا ونقف فى الانتظار. وكانت اللهفة ظاهرة على الجميع حتي البحارة ورجال القوة. فقال هولمز :

— ليس لنا الحق فى أن نأخذ أى فرض قضية مسلمة. فمن يدرينا أى اتجاه سيسلكون. أما فى هذا الموضع فنستطيع أن نرى مدخل الحوض. وفى الوقت نفسه لا يمكن لهم أن يرونا. فيجب أن نبقى حيث نحن

وجعل هولمز بعد ذلك يسلينا لتمضية الوقت بأحاديث مختلفة عن أحدث الآراء فى علم الاجتماع، معلقاً على جموع العمال الذين خرجوا فى تلك الآونة من نوبات العمل فى الأحواض عائدين إلى بيوتهم. وفجأة قطع الكلام وصاح :

— أليس ما أراه هناك حركة منديل ؟

فصحت بعد أن حدجت النظر :

— إنه غلامك. إنى أراه من هنا بوضوح

— وهذه هى أورورا. إنها تمرق كالشيطان ! افتح النفس على آخر

سرعة أيها السائق. واسرع فى أثر هذا اللنش ذى النور الأصفر. لن أغفر لنفسى لو أنها أفلتت من يدنا

وكان اللنش قد مرق من أمامنا. وبسرعة هائلة جداً بمحاذاة الشاطىء. فحدق جونس فيها ثم هز رأسه قائلا :

— انها سريعة جداً. أشك فى استطاعتنا إدراكها

فصرخ هولمز وقد قدحت عيناه بالشرر :

— بل يجب أن ندركها ! آخر سرعة أيها البحارة ! يجب أن نلحقهم ولو أحرقنا الزورق. يجب بأى ثمن !

وكانت المراجل تهدر. والآلات تضج كأنها قلب ميكانيكى ضخم. وأصبحنا نسير بسرعة نرضى عنها. مع أننا كنا نهتز اهتزازاً عنيفاً. ولم نكن نبصر من أورورا إلا نقطة سوداء أمامنا يحيط بها زبد الماء الأبيض الذى تحدثه رفاساتها. وكنا نحن فى أثرها ندور حول السفن والصنادل، وأصوات بحارتها تصيح بنا محيية أو محذرة. وهولمز ماض فى تشجيع بحارتنا وتحميسهم مع أنهم كانوا فى غاية الحماسة من تلقاء أنفسهم

وبعد قليل قال جونس وهو لا يرفع بصره عن أورورا :

— لقد اقتربنا قليلا

— أنا متأكد من هذا. وسنحاذيها بعد بضع دقائق

ولكن حظنا السىء شاء أن تفصل بيننا وبينها فى هذه اللحظة قاطرة تجر ثلاثة صنادل مشحونة بالبضائع. وبكل صعوبة تفادينا الاصطدام بها. وما أن فرغنا من الدوران حولها حتى كانت أورورا قد سبقتنا بمائتى ياردة أخرى. وإن كانت لم تزل على مرمى البصر

واستمرت المطاردة حتي تجاوزنا أرصفة شركة الهند الغربية ثم جزيرة الكلاب وعندئذ كانت المسافة بيننا وبين أورورا قد قصرت حتى أصبحنا نسمع أصوات آلاتها. فوجه جونس النور الكشاف إليها ورأينا بوضوح أشكال الأشخاص الواقفين فوقها

كان هناك رجل يجلس وبين ركبتيه شىء أسود قد مال فوقه. وبجانبه

كتلة مظلمة أشبه بكلاب نيوفوندلاند. وأمام عجلة القيادة رأيت سمث العجوز عارياً إلى خاصرته وهو يقذف بالفحم بين الحين والحين الى المرجل

وربما كانوا فى شك فى بداية الأمر هل نحن فى آثارهم حقاً أم أنها مصادفة فلما رأونا نقتفى أثرهم فى كل دوران وكل انحراف لم يعد هناك مجال للشك

وعند جرينتش كانت المسافة بيننا وبينهم نحو ثلاثمائة خطوة. فلما وصلنا الى بلاكووك نقصت المسافة إلى مائتين وخمسين. وطفقنا نقترب منهم خطوة فخطوة فى سباق كسباق الشياطين. ورجالنا لا يدخرون وسعاً فى تغذية زورقنا بغذائه النارى..

وكان الرجل الواقف على السفينة يحرك يديه وهو منحن ولا ندرى ماذا يصنع. وبين الحين والحين يرفع نظره ويقيس المسافة الفاصلة بيننا، وهى تقصر شيئاً فشيئاً

وعلى مرمى الصوت جعل جونس يصرخ فيهم كى يقفوا. ولم تكن المسافة تزيد على مائة خطوة ونحن تجاه باركنج ليفل حيث الشاطىء مكشوف. وكان رد الرجل الواقف فى المؤخرة علينا أن لوح بقبضتيه مهدداً، وسمعنا صوته الغليظ وهو يسب ويلعن

ولم يكف عن الصراخ حتي رأينا الكتلة التى ظنناها كلباً يتحرك. فاذا رجل أسود قصير لعله أصغر من رأيت فى حياتى، وله رأس ضخم مشوه. فرأيت هولمز يخرج مسدسه. فأخرجت أنا مسدسى بحركة غريزية. لأن منظر وجهه كان كافياً لبعث الرعب فى نفس أى انسان بوحشيته وقسوته. وقد كشر عن أنيابه الكبيرة. وهتف بى هولمز بكل هدوء :

— أحكم الهدف وأطلق النار متي رفع يده

وكانت المسافة لا تزيد على عشرين خطوة عندئذ. فاستطعت أن أرى الرجلين على حقيقتهما. فالرجل الأبيض متباعد الساقين يصرخ ويلعن. والقزم الأسود كاشر الأنياب متوهج العينين فى ضوئنا الكشاف

ومن حسن الحظ أن الهدف كان واضحاً. لأنه سرعان ما أخرج من تحت ثيابه قطعة مستديرة من الخشب أشبه بالأرغول رفعها الى فمه. وعندئذ

انطلق مسدسانا فى وقت واحد، فترنح وطوح بذراعيه ثم سقط فى النهر. وبعد لحظة واحدة اختفى فى زبد الماء

وألقى الرجل الآخر بنفسه ــ وهو ذو الساق الخشبية ــ على عجلة الدفة فحول اللنش الى الضفة الجنوبية مباشرة، صانعاً زاوية حادة. وبهذا مرقت سفينتنا فى اتجاهها الأول قبل أن نسرع بتحويل اتجاهها

ولكن سرعان ما كنا فى أعقاب أورورا. إلا أنها وصلت الشاطىء قبلنا. وهو شاطىء مقفر تكثر فيه المستنقعات اللامعة فى ضوء القمر. ورأينا أورورا تتوغل فى طين ذلك الشاطىء وقد ارتفع مقدمها فى الهواء. وقفز الهارب ذو الساق الخشبية الى الأرض. ولكنه لم يقدر أن هذه الساق الخشبية ستغوص فى الطين اللزج

وعبثاً حاول أن يستخرجها. فسمر فى مكانه لا يستطيع التقدم أو التأخر وهو يصرخ كالمجنون ويضرب الطين بقدمه الأخرى. فلا يزيد ذلك ساقه الخشبية إلا إمعاناً فى الغوص

وقد أفادتنا هذه المصيدة الطبيعية أيما فائدة. لأنها أمسكت لنا الهارب الى أن تمكن لنشنا من الرسو. ثم قذفنا أنشوطة من الحبال أحاطت بكتفه وجررناه بعد ذلك إلى اللنش كأنه سمكة كبيرة من سمك القرش. أما سمث وابنه جيم فكانا واقفين على لنشهما. فاستدعيناهما الى لنشنا. فأقبلا مذعنين

وتولى البحارة ربط أورورا فى لنشنا. وقطرها اللنش بعد ذلك فأخرجها من الطين الذى انغرست فيه

وبتفتيش أورورا وجدنا صندوقاً حديدياً ضخما ثقيلا فوق سطحها يدل شكله على أنه من صناعة الهنود. فلم يكن هناك شك أنه الصندوق الذى يضم كنز آل شولتو الملعون

وبحثنا عن المفتاح فلم نجده. فتعاون البحارة على حمله بكل عناية الى قمرتنا الصغيرة فى لنش البوليس لأنه كان ثقيلا جداً

وفيما كنا عائدين على مهل، جعلنا نوجه النور الكشاف الى كل مكان على الشاطىء من الجهتين. ولكنا لم نعثر على أثر لذلك الوحش الأسود. فأيقنا

أن عظامه قد استقرت فى قاع نهر التاميز

وأشار هولمز بعد ذلك الى الأرغول الخشبى الغريب الشكل قائلا :

— لقد أنقذتنا مسدساتنا فى آخر لحظة

ولم أدرك مغزى عبارته إلا عندما استعان بالفانوس كى يرينى فى جدار اللنش ، خلف الموضع الذى كنت واقفاً فيه معه ، شظية من تلك الشظايا المسمومة القاتلة التى عرفناها جيداً، والتى مات باحداها برثلوميو شولتو المسكين

ولا شك أن هذه الشظية قد مرقت من بيننا نحن الاثنين فى نفس اللحظة التى أطلقنا فيها مسدسينا ، واعترف أن القشعريرة سرت فى جسدى وأنا أتصور ذلك . أما هولمز العجيب فلم يفعل شيئاً سوى أن ابتسم وهز كتفيه على طريقته غير المكترثة وقال :

— بوصة واحدة فرقت بين الحياة والموت . هكذا حظوظ الدنيا دائماً

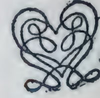
— ألا تشعر بانفعال يا رجل ؟

— ان الحظ دائماً أعمى . لا يستحق منا انفعالا

— ولكن هذا الحظ يتعلق بحياتك

— ان الحياة لا تهمنى إلا بمقدار ما أستطيع أن أصنعه بها

فلم يسعنى أنا أيضاً إلا أن أهز كتفى يائساً من تغيير نظرة هذا الانسان العجيب إلى الدنيا . واتجهت بتفكيرى الى الصفحة الجديدة التى فتحتها هذه الصدفة فى حياتى أنا بعد أن وفق هولمز فى استرداد الكنز



الفصل التاسع عشر

جلسة عائلية

جلس أسيرنا فى القمرة أمام ذلك الصندوق الحديدى الذى فعل الكثير ليحصل عليه ، وصبر طويلا ليصل اليه . وجعلت أتأمله ، فاذا هو رجل لوحته حرارة الشمس جداً . ليس لجسارته حد . وقد انتشرت فوق ملامحه الداكنة شبكة من الغضون والتجاعيد ، تروى قصة حياة شاقة فى العراء

ولمحت تحت لحيته الكثة ذقنا بارزة تدل على أنه رجل ليس من السهل إرجاعه عن أمر عقد العزم عليه . أما عمره فربما كان نحو الخمسين . إذ أن شعره الأسود المجعد كان يكثر فيه الشيب . وكذلك فى حاجبيه الكثيفين . فسحنته على العموم مخيفة . وإن كان فى حال هدوئه ربما بدا غير محروم من الوسامة

كان جالسا ويداه المصفدتان بالأغلال فى حجره . وقد سقط رأسه على صدره . وعيناه ترمقان ذلك الصندوق الذى كان محور جرائمه . وخيل إلىّ أننى قرأت فى نظراته تلك آيات الحزن أكثر مما قرأت علائم الغضب . وفى لحظة من اللحظات رفع وجهه فخيل إلىّ أنى أرى سخرية . وعندئذ قال له هولمز وهو يشعل سيجاراً :

— الحقيقة يا جوناثان سمول انى آسف لوصول الأمور إلى هذا الحد

فقال الأسير بلهجة صريحة :

— وأنا أيضا آسف يا سيدى . وإن كنت أقسم لك على الكتاب المقدس أننى لم أرفع يدى على مستر شولتو . وإنما كان هذا الشيطان الصغير تونجا هو الذى أطلق إحدى شظاياه الملعونة عليه . ولم يكن لى فى ذلك يد .

وأشهد الله أنى حزنت لمصرعه كما لو كان من ذوى قرباى . فانهلت ضربا على ذلك الشيطان الصغير بطرف الحبل . ولكن ما تم كان قد تم ، ولا سبيل لرد ميت إلى الحياة

فرقت نظرة هولمز ورق صوته وهو يقول :

— خذ هذا السيجار ودخنه

فتناول الأسير السيجار شاكراً . وعندئذ قال هولمز :

— خذ اشرب قليلا من زجاجتى . فانى أراك مبتلا من رأسك الى قدمك وكيف خطر لك أن شخصاً ضعيفاً قصيراً مثل هذا الوحش الأسود تونجا كان يستطيع أن يتغلب على مقاومة مستر شولتو ويقيده فى مكانه الى أن تتمكن أنت من التسلق بواسطة الحبل ؟

— يبدو ياسيدى أنك تعرف عن الموضوع كل شىء كأنك كنت حاضراً والحقيقة أننى كنت أتوقع أن أجد الحجرة خالية . لأنى كنت على علم سابق بجميع عادات أهل البيت . وأن هذه الساعة هى الساعة التى ينزل فيها مستر برثلوميو شولتو ليتناول طعام العشاء . وليس فى نيتى أن أكتم عنك شيئاً من تفاصيل الموضوع بعد أن حدث ماحدث . فخير دفاع أستطيع أن أدفع به عن نفسى هو أن أذكر الحقيقة من غير مواربة

وتجرع الرجل جرعة كبيرة من زجاجة الويسكى ثم استطرد :

— لو أن الرجل كان الميجر شولتو الكبير لهاجمته عن طيب خاطر ولم أجد شيئاً من الندم على قتله وكأنى أدخن هذا السيجار . أما ذلك الشاب المسكين فلم يكن بينى وبينه أى عداء

— أنت الآن فى عهدة المستر آثلنى جونس فى قوة سكوتلنديارد وسيتولى احضارك الى مسكنى . لأنى أريد أن أعرف منك حقيقة المسألة بحذافيرها ويحسن أن تعترف بكل شى . لأنك إن فعلت فانى آمل أن أستطيع لك شيئاً من النفع . ففى اعتقادى أننى أستطيع أن أثبت للمحلفين أن السم الذى

استخدمه تونجا يفعل فعله فى التو واللحظة بحيث لم تكن لتستطيع اسعافه عند وصولك الى الحجرة

— هذا هو الواقع يا سيدى . فانى لم أشعر بصدمة فى حياتى كالتى شعرت بها عندما رأيته ينظر الى متصلب عضلات الوجه وقد مال رأسه فوق كتفه حينما وصلت فى تسلقى الى حافة النافذة . لقد هزنى هذا المنظر هزاً عنيفاً وكنت حرياً أن أقتل تونجا فى الحال لولا أنه فر من أمامى . وهذا هو السبب فى أنه نسى شومته ذات الرأس الحجرية على المنضدة . كما أسقط جعبة قذائفه المسمومة . فكان ذلك سبباً فى وصولكم الى اقتفاء أثرنا . وان كنت لا أدرى الى الآن كيف تمكنتم من تعقبنا بعد ذلك فى متاهات لندن . وليس معنى هذا انى أشعر بأى حقد عليكم . فهذه مشيئة القدر الذى لا أدرى لماذا يضطهدنى

وابتسم الرجل ابتسامة مرة وهو يستطرد :

— أى نحس هذا الذى جعلنى وأنا صاحب الحق فى نصف مليون من الجنيهات أقضى نصف عمرى فى بناء حاجز للأمواج فى جزائر أندمان . ثم أقضى فى الغالب مابقى من عمرى بعد الآن فى تكسير الحجارة فى ليمان درتمور ! لقد كان يوماً مشئوماً ذلك الذى قابلت فيه التاجر أحمد ، فاتصلت مقاديرى بكنز أجرا الذى لم يستفد منه انسان وضع يده عليه الا اللعنات . فالتاجر أحمد قتل . والميجور شولتو عاش مذعوراً أثيماً . أما أنا فكان نصيبى اهدار حياتى بين السجون فى الشرق والغرب

وفى هذه اللحظة دس أثلنى جونس وجهه من فتحة القمرة . فلما رأى هذا الاجتماع الثلاثى قال :

— يالها من جلسة عائلية ! أظن ياهولمز أننى محتاج لجرعة من قنينتك والحقيقة اننا جميعاً نستحق أن نتبادل التهنئة

فتبادلت مع هولمز نظرة ذات مغزى . واستطرد جونس :

— مما يؤسف له حقاً أننا لم نتمكن من وضع يدنا على المخلوق الآخر حياً ولكن لم تكن لنا فى الأمر حيلة

— يجب أن نحمد الظروف . لأننا لم نكن نتصور أن أورورا بهذه القوة

— إن صاحبها مردخاى سمث يقول إنها من أسرع عشرة لنشات فوق هذا النهر . وانه لوكان معه وقاد يساعده لما استطعنا أن نلحق بها اطلاقاً وان كان فى الوقت نفسه يقسم أغلظ الأيمان أنه لم يكن يدرى شيئاً عن مأساة نروود وعلاقة هذين الشخصين بها

وعندئذ انفجر أسيرنا بكل اخلاص قائلا :

— إنه لم يكن يدرى شيئاً فعلا . فقد اخترت لنشه لأنى سمعت من البحارة العليمين بأحوال الشاطىء وسفنه أنه من أسرع اللنشات . ولم أخبره بشىء واكتفيت بالسخاء فى الأجر مقدماً . ووعدته بثروة طيبة إذا وصلنا سالمين إلى الباخرة أزميرالدا فى مرفأ جريفزيند لنبحر الى البرازيل

— مادام لم يقترف اثماً فسنعمل جهدنا كى لا يناله سوء . فنحن رجال سكوتلنديارد نتصف بالسرعة فى القبض . ولكننا لا نتصف بالسرعة فى الإدانة جزافاً . هذا شعارنا

فابتسمت أنا وهولمز لأن الصديق جونس بدأ بالفعل يتقمص دور البطل فى القبض على الجانى . واستطرد جونس قائلا :

— سنصل عما قليل الى كوبرى فوكسهول . وهناك يادكتور وطسن سننزلك وننزل صندوق الكنز ولا حاجة بى أن أقول لك أننى تحملت مسئولية خطيرة بالإقدام على ذلك . وهو عمل مخالف للأصول والتعليمات . بيد أن الاتفاقية هى الاتفاقيه . ولكنى قياماً بالشكليات سأرسل معك حارساً بما أنك تحمل غنيمة ثمينة كهذه . وستركب عربة طبعاً ؟

— نعم سأركب عربة

— من المؤسف أننا لم نعثر على المفتاح . والا لألقينا نظرة مبدئية قبل أن تأخذ الصندوق وسيكون عليك فى هذه الحالة أن تحطمه

ثم نظر الى جوناثان سمول وقال له :

— أين المفتاح أيها الرجل ؟

— فى قاع النهر

— لم تكن بك حاجة لهذا العمل الذى لاجدوى منه . فقد أتعبتنا بما فيه الكفاية . وليست بى حاجة يادكتور لتكرير التحذير . وأرجوك أن تعود بالصندوق بسرعة الى مسكن هولمز بشارع بيكر . وستجدنا هناك فى انتظار قدومك لنذهب الى مكتب البوليس



الفصل العشرون

الكنز الثمين

توقف اللنش عند مرسى فوكسهول . وتولى الشرطى الضخم الذى كلفه جونس بمرافقتى وحراستى حمل الصندوق الثقيل الى الشاطىء . ولبثنا بعض الوقت الى أن أحضر شرطى آخر عربة أجرة مقفلة

وأمام العملة الفضية الكبيرة التى وضعتها تحت أنف الحوذى ألهب ظهور جياده بحيث وصلنا فى مدى ربع ساعة الى منزل مسز سيسل فورستر فى كامبرويل . وبطبيعة الحال بدا الاستغراب على الخادم لحضور زوار فى مثل هذه الساعة المتأخرة جداً وعلى غير انتظار

وفهمنا منه ان مسز سيسيل فورستر كانت سهرانة فى الخارج . وليس من المنتظر عودتها قبل الفجر . أما الآنسة مورستان فكانت فى قاعة الاستقبال . وإلى هناك يممت وجهى حاملا الصندوق الثقيل بعد أن رجوت الجندى أن يبقى فى انتظارى بالعربة

ووجدتها جالسة بجوار النافذة المفتوحة ، وقد ارتدت ثوباً أبيض ناصعاً فضفاضاً ، فيه لمسات متباعدة أشبه بالريش الوردى عند العنق وعند الخاصرة . وكان الضوء المظلل بغلائل وردية يسقط على مقعدها ويتراقص فوق وجهها الهادىء العذب ، ويداعب بظلاله خصلات شعرها الغزير الذى يلمع لمعاناً لا دخل للصناعة فيه

وكان ذراعها الأبيض كالعاج مسترخياً على ذراع المقعد . وقد بدا قوامها كله وكأنه تعبير رائع ينطق بالأسى

فلما سمعت وقع أقدامى قفزت واقفة على قدميها . ثم اندفع الدم القانى ليرسم



وقال الدكتور واطسون للآنسة مورستان : « هذا هو كنز « أجرا » الثمين »

الدهشة والسرور فوق خديها الشاحبين وقالت :

— لقد ظننت حين سمعت العربة تقف أمام الباب انها مسز فورستر وقد عادت مبكرة عن موعدها . ولكن لم يخطر ببالى مطلقاً أن تكون أنت القادم. فأى الأنباء جئت تحملها إلىّ ؟

فقلت وأنا أضع الصندوق بزهو فوق منضدة ، وقد اجتهدت أن أجعل صوتى معبراً عن المرح والاستبشار ، وإن كان قلبى فى الحقيقة منقبضاً :

— لقد أتيتك بشىء أفضل بكثير من أى نبأ . أتيتك بشىء يجب أن يكون أثمن فى نظرك من أنباء الدنيا بأسرها . أتيتك بالثراء الطائل

وأشرت بيدى الى الصندوق الحديدى . فوجهت بصرها اليه . ولم تستقر عنده إلا لحظة ثم التفتت إلىّ وسألتنى بكل فتور :

— هل هذا هو الكنز إذن ؟

— نعم هذا هو كنز أجرا الثمين . إن نصف مافيه من حقك . والنصف الثانى من حق ثاديوس شولتو . ويزيد نصيب كل منكما عن ربع مليون ذهباً . فكرى فى هذا ! تصوريه !

فظلت صامتة لاتعلق بشىء ، فقلت كأنى أوقظها :

— سأساعدك على التصور . لو وضعت نصيبك فى بنك بسعر الربح الجارى فى السوق الآن لكفى ذلك لحصولك على إيراد صاف لايقل عن ألف جنيه شهرياً . ومعنى هذا انه سيندر فى الامبراطورية البريطانية وجود سيدة شابة تضارعك ثراء

ومرة أخرى لم ألمح عليها اهتماما بالقول أو الاشارة

— بربك أليس هذا رائعا ؟ !

وخيل إلىّ انها ربما فطنت الى شىء من التكلف فى حماسى وتهنئتى . لأنى رأيت حاجبيها يرتفعان قليلا ثم رمقتنى بنظرة غريبة . وقالت :

— إن حصلت على هذا كله . فبفضلك أنت

فأسرعت أجيبها مصححا للأوضاع :

— كلا . فالفضل ليس لى أنا . بل لصديقى شرلوك هولمز . فمهما كانت حماسى وعزيمتى على اقتناص الجناة واسترداد الكنز ، فما كنت لأستطيع الوصول

الى تعقب تلك الآثار الغامضة والخيوط الخفية التى بلغ من غموضها انها تحدت مقدرته الفذة وفطنته العبقرية . وانه لمن الاعتراف بالواقع أن نقول انه كان من الجائز جداً أن نخسر الجولة فى آخر لحظة . وأن يفلت الجناة ويسقط منا قتيل

فوضعت يدها على صدرها فى لهفة جميلة وقالت :

— اجلس من فضلك وحدثنى بجميع التفاصيل يادكتور وطسن

فلم يسعنى سوى أن أجلس وأحدثها بإيجاز عما حدث منذ رأيتها آخر مرة . فشرحت لها باختصار نظرية هولمز فى البحث ، ثم اكتشافه لوجود اللنش أوروورا فى الحوض الجاف ، ثم ظهور آثلنى جونس على المسرح بدعوة من هولمز ، ثم مغامرتنا الليلية النهرية والمطاردة العنيفة اليائسة التى خضناها على صفحة التامز

وكانت الآنسة مورستان تصغى بانتباه وقد انفرجت شفتاها العقيقيتان ، ولمعت عيناها بالحماسة والاهتمام . فلما حدثتها عن تلك الشظية التى لم تصبنا إلا بأعجوبة ، شحب وجهها جداً حتى لقد خشيت أن يغمى عليها . فأسرعت أصب لها كوبا من الماء . فقالت :

— ليس بى شىء . أنا بخير . إنما اهتزت أعصابى لأننى أدركت الى أى حد عرضت أصدقاء أعزاء للخطر من أجلى

فابتهج قلبى لهذه الكلمة وقلت لها :

— لقد انتهى كل شىء الآن . انتهت جميع الأخطار والمتاعب . وهى ليست شيئاً بجانب الثمرة الثمينه التى حصلنا عليها . وسوف لا أخبرك بمزيد من التفاصيل المحزنة . ولنغير موضوع الكلام الى أشياء أكثر بهجة . هذا هو الكنز أمامنا . كنز أجرا الثمين . أى شىء يمكن أن يكون أكثر بهجة للنفس من هذا الكنز ؟ لقد استأذنت أن آتى به اليك . لأنى ظننت أنه سوف يهمك أن تكونى أول من يراه

فقالت من غير أن يبدو فى صوتها أى تلهف :

— طبعاً هذا يهمنى جداً

وربما كان قد خطر لها أن تقول ذلك لأنها وجدت من غير اللائق

ألا تكترث لشىء كهذا تكلف الحصول عليه كل هذا الثمن الباهظ

ورأيتها تتقدم فتنحنى فوق الصندوق وتقول :

— ياله من صندوق بديع !

ورفعت نظرها الى فسرت الرجفة فى أعصابى وسمعتها تسألنى :

— أنه فيما أظن من مصنوعات الهند ؟

فانتهزت الفرصة لأظهر لها دقة معلوماتى :

— نعم . من صناعة أهل بنارس على وجه التحديد . فهم المتخصصون فى مثل هذه الزخارف المعدنية فى شبه القارة الهندية

وحاولت أن ترفعه ثم هتفت بصوتها العذب :

— يا لله ! كم هو ثقيل ! ان الصندوق وحده تحفة ثمينة من تحف الصناعة ولكن أين المفتاح يا دكتور ؟

— قذف به جوناثان سمول الى نهر التامز عندما أطبقنا عليه وأيقن بفشله وهزيمته . لابد لى من الاستعانة بقضيب المدفأة

وكان فى واجهة الصندوق نقش بارز على شكل الإله بوذا جالسا القرفصاء فدسست طرف القضيب تحت فخذ التمثال واستعملته رافعة فانفتح الصندوق بطرقعة عالية

وبأصابع مرتعشة رفعت الغطاء . ووقفنا نحن الاثنان نحملق مبهوتين : كان الصندوق خالياً تماماً !

وأفقت من ذهولى على صوت الآنسة مورستان تقول بكل هدوء :

— إذن ضاع الكنز !

وطنت هذه الكلمة فى أذنى طويلا قبل أن أفطن الى حقيقة معناها وأحسست كأن سحابة قاتمة قد انقشعت عن وجدانى . فالحقيقة أننى لم أكن أدرى على وجه الدقة الى أى حد كان كنز أجرا هذا عبئاً ثقيلا على كاهلى ، الى أن انزاح هذا العبء فى تلك اللحظة تماماً

أجل قد يكون ذلك أنانية ولاشك . وقد يكون قلة اخلاص . ولكنى مع ذلك لم أشعر أن فى قلبى مكاناً لشىء آخر ونحن فى هذا الموقف سوى الفرح

الذى لا حد له لأن الحاجز الذهبى الذى كان قائماً بينى وبينها سقط كما سقطت أسوار أريحا

ومن غير أن أفطن لما أقول . سمعت نفسى أقول من أعماق قلبى :

— الحمد لله !

وتوقعت فى الحال أن تغضب . ولكنى فوجئت بها ترمقنى بنظرة سريعة وعلى فمها ابتسامة تحمل معنى التساؤل :

— لماذا تقول ذلك ؟

فلم أدر إلا وأنا أتناول يدها فى يدى . فلم تمانع . وعندئذ قلت :

— لأنك بذلك أصبحت فى متناول يدى مرة أخرى . لأننى أحبك ياماري أصدق حب يمكن أن يكنه رجل لامرأة ، لأن هذا الكنز وهذه الأموال كانت قفلا يختم على فمى فلا أستطيع أن أبوح بحبى. أما الآن وقد ذهب كل هذا فأستطيع أن أقول لك كم أحبك . وهذا يا مارى هو السبب الذى من أجله هتف قلبى حمداً لله

فأجابت بصوت هامس وأنا أجذبها الى صدرى :

— إذن أنا أيضاً أقول الحمد لله !

ولئن سجل المسجلون أن كنزاً ثميناً فقد تلك الليلة . فحسبى يقينى أننى فى تلك الليلة غنمت كنزاً لا يقدر بمال



الفصل الحادى والعشرون

السجين يتكلم

ما من شك أن ذلك الجاويش الذى كان ينتظرنى فى العربة كان رجلا صبوراً جداً . لأنه لم يستعجلنى . مع أن وقتاً طويلا كان قد مر قبل أن أستفيق فأتذكر الدنيا وأتذكره معها فأعود اليه على مضض

واكفهر وجه المسكين عندما أطلعته على الصندوق الخاوى وصاح :

— ضاعت علينا المكافأة . فحينما لاتوجد غنيمة لا يوجد عطاء . مع أن عملية هذه الليلة كانت ستجلب لكل منا عشرة جنيهات

— أن مستر ثاديوس شولتو رجل غنى جداً . وسيهتم بمكافأتكم سواء كان هناك كنز أم لا

فهز الرجل رأسه بأسى وعاد يقول :

— مسألة مؤسفة ، ولا ندرى ماذا سيقول مستر أثلنى جونس

ويظهر أن تنبؤاته كانت فى محلها . لأن صاحبنا جونس بهت عندما وصلت الى شارع بيكر وفتحت أمامه الصندوق الخاوى . وكانت المجموعة قد وصلت هناك منذ قليل. ذلك أن جونس غير رأيه أثناء الطريق وقرر تحرير مذكرة بما تم فى أول مركز للبوليس قبل الذهاب الى بيت هولمز . وكان صاحبى جالساً فى مقعده المعتاد غير مكترث لشىء . أما جوناثان سمول فجلس قبالته بساقه الخشبية . فلما فتحت الصندوق ورأى رد الفعل القاسى على وجه جونس انفجر ضاحكاً . فصاح جونس :

— هذا من فعل يدك يا سمول

— أجل . فقد وضعت الكنز فى مكان لا تصل اليه يدك أبداً . ولا بد أى

إنسان . انه كنزى أنا . وما دمت لا أستطيع أن أستفيد منه فليس أقل من الحيلولة بين سواى وتلك الاستفادة المغتصبة

وجال الرجل الأعرج ببصره بيننا برهة ثم استطرد :

— أؤكد لكم أنه ما من انسان على وجه الأرض له مثل الذى لى من الحق فى هذا الكنز . اللهم الا الرجال الثلاثة الموجودون الآن . فى ليمان جزائر اندمان حيث تركتهم . وقد أصبحت واثقاً أن أحداً لن يصل اليه ، ولا أنا ولا هم كذلك . وقد قمت بهذا العمل بالنيابة عنهم كما قمت به بالاصالة عن نفسى فقد كان شعارنا دائماً علامة الـ « ٤ » . وانى على يقين من أنهم لو كانوا موجودين لأشاروا على أن أفعل ما فعلت . وان أقذف بهذه الجواهر الى نهر التاميز حتى لا تقع فى يد أحد من آل شولتو أو آل مورستان . فليس من أجل هؤلاء وللعمل على إثرائهم أقدمنا على ما اقترفناه فى حق أحمد المسكين . وعلى هذا أيها السادة ستجدون الكنز حيث تجدون المفتاح ، وحيث تستقر جثة تونج الآن . فإننى عندما رأيت لنشكم يطبق علينا ، ألقيت بكل شىء الى القاع

فقال له أثلنى جونس بحدة :

— انك تخدعنا ياجوناثان سمول . فلو أردت أن تقذف الكنز فى التاميز لكان أسهل عليك أن تلقى الصندوق بما فيه دفعة واحدة !

فرمقه جوناثان سمول بنظرة جانبية وقال بتهكم :

— كان هذا أسهل فى القذف . وأسهل أيضاً فى الاستخراج . فان الرجل الذى كان من البراعة بحيث يقع على أثرى بين الملايين فى لندن لم يكن ليعجزه أن يعثر على صندوق حديدى فى قاع نهر . أما الآن وهذه الجواهر مبعثرة على مدى خمسة أميال أو نحو ذلك ، فالمهمة عسيرة ان لم تكن مستحيلة كل الاستحالة

وخفض صوته قليلا وهو يقول :

— لقد حز فى قلبى أن أصنع ما صنعت بتلك الماسات واللآلىء . ولكن لا جدوى من الحزن . فكم مر بى من شدائد ونحن تعلمت منها درساً واحداً باقياً ، هو ألا أحزن أبداً على ما فات

— هذه مسألة خطيرة ياجوناثان سمول . ولو أنك ساعدت العدالة بدلا

من تبديد تلك الثروة على هذا الوجه القبيح ، لكانت أمامك فرصة للتمتع برحمة العداله أثناء المحاكمة

فانفجر الثعلب العجوز ساخطاً :

— العدالة ! أتقول العدالة ؟ يالها من عدالة حقاً ! غنيمة من هذه ان لم تكن غنيمتنا ؟ أين هى العدالة التى ترغمنى على اعطائها لمن لاحق لهم فيها ؟ انظروا الى الجهود التى بذلتها ! إنها عشرون سنة طويلة قضيتها فى تلك المنطقة الموبوءة بالحمى ، أقضى النهار بطوله فى العمل تحت وهج الشمس وأقضى الليل بطوله مقيداً بالأغلال فى أكواخ قذرة ، ينهشنى الناموس ، ويضطهدنى الجنود السود لينتقموا فى شخصى من الجنس الأبيض . هكذا دفعت ثمن كنز أجراً غالياً . ثم تحدثوننى أنتم عن العدالة ، كى أتخلى عن ثمرة كل هذا العناء لقوم لا يستحقونه ! أفضل من هذا عندى أن تنغرس شظية من شظايا تونجا فى جلدى ! ذلك خير من أن أذهب أنا إلى الليمان أحطم الحجارة وأنا أشعر أن غيرى يتمتع بأموالى !

وبهذا طرح سمول جانبا قناع التجلد والسخرية ، وتطاير الشرر من عينيه وجعلت الأصفاد الحديدية تصل صليلا وهو يحرك يديه بحركات عصبية فأدركت على الفور أن الميجور شولتو كان على حق فى الرعب الذى صوره لنا ابنه لأن هذا الرجل كان يطارده

وتركه هولمز حتى هدأ قليلا وقال له برزانة :

— إنك تنسى ياجوناثان سمول أننا لا ندرى شيئاً على الإطلاق من هذا كله . فنحن لم نسمع قصتك . ولهذا لانستطيع أن نتنبأ كيف أن العدالة كان ينبغى أن تكون فى جانبك

— الحقيقة ياسيدى أنك كنت لطيفاً جداً فى محادثاتك معى ، مع أننى أدين لك بفضل وجود هذه الاصفاد فى يدى الآن . ولكنى لا أشعر بالحقد عليك بسبب ذلك . لأنك كنت تقوم بواجبك ولا تضمر لى سوءا بصفة شخصية . فإن كنت تريد ياسيدى أن تسمع منى حكايتى ، فليس عندى مانع من ذلك وليس فى نيتى أن أكتم عنك أى جانب من الحقيقة ، والله على ما أقول شهيد

فصب له هولمز كأساً من الويسكى والصودا وقدمه اليه ، فأومأ الرجل برأسه وقال :

— شكراً لك . ضعه هنا بجانبى لأرتشف منه كلما جف حلقى . انى ياسيدى من أهالى وورشستر . هناك ولدت بالقرب من بيرشور . ولو ذهبت الى تلك المنطقة الآن لوجدت عدداً كبيراً من الناس يحمل اسم سمول . واعترف أننى لم أشرف كثيراً هذا الاسم . فجميع من يحملونه فلاحون مجدون شرفاء أما أنا فكنت منذ صغرى أفاقاً ماجناً . وفى سن الثامنة عشرة فتنت بفتاة بريئة خدعتها وجنيت عليها . ثم لم أجد أمامى طريقاً للنجاة سوى أن أنضم خلسة للفرقة المسافرة الى الهند

« وبطبيعة الحال لم يكن عندى استعداد كبير لحياة الجندية . وكل ما استطعت اتقانه هو مشية الأوزة ، وتنظيف البندقية وإصابة الهدف . ثم وسوس لى شيطان أن أنزل لأستحم فى نهر الكانج . ولحسن الحظ أنه كان معى جاويش السرية جون هولدر الذى كان سباحاً من أمهر السباحين . وبينما أنا فى منتصف النهر لحق بى تمساح . فقضم ساقى اليمنى كأمهر جراح فى الإمبراطورية فوق الركبة مباشرة . وبتأثير الصدمة ونزف الدم أغمى على . وكنت حرياً أن أغرق لولا أن هولدر أدركنى وحملنى إلى الشاطىء حيث قضيت فى المستشفى خمسة أشهر . فلما خرجت أحجل على هذه الساق الخشبية وجدت نفسى من ذوى العاهات ، لا أصلح للخدمة العسكرية ولا لأى نشاط آخر

« وكنت كما يمكن أن تتصوروا حزيناً جداً على مصيرى التعس فى ذلك الوقت بالرغم من أننى لم أبلغ العشرين من عمرى بعد . ولكن السماء كانت رحيمة بى فبعثت لى بنعمة فى طى تلك النقمة. وقيضت لى مزارعاً من كبار المزارعين البيض اسمه قابيل وايت ، كان بحاجة الى مقدم لعماله الوطنيين . ولما كانت تربطه بكولونيل فرقتنا صداقة قوية فقد اهتم بأمرى وعيننى فى الوظيفة التى لم تكن تحتاج الى المشى بل الى قضاء معظم الوقت على صهوة جواد . وتلك مسألة لم تكن تعوقنى عنها ساقى الخشبية

« وكل ما كان مطلوباً منى أن أجوب أرجاء مزرعة (النيلة) لأراقب العمال وألهب ظهورهم بالسياط من حين الى حين ، لحثهم على ترك الكسل ، أو لمجرد التسلية وتبديد السأم عن نفسى ... وكان المرتب طيباً ، والبيت الذى خصصه لى مريحاً ، بحيث لم أكن أطمع فى أكثر من قضاء بقية أيامى على تلك الوتيرة

« ولكن سوء طالعى جعل ذلك الأمل المتواضع عزيز المنال . ففجأة ومن غير سابق إنذار تأججت نيران الثورة فى الاقليم كله ضد البيض . ولا أدرى على وجه التحقيق ما هى طبيعة هؤلاء الناس . فقد كانت الأمور قبل تلك الثورة فى منتهى الهدوء والسكينة شاملة كأننا فى قطعة من الريف الانجليزى مثل سورى أو كنت . وبين يوم وليلة ومن غير سبب مباشر اندفعت جموع لا تقل عن ربع مليون من الشياطين السمر يضرمون الجحيم حول الأوربيين . وكانت مزرعتنا فى موضع يقال له « موطرا » بالقرب من حدود الولايات الشمالية الغربية . فكانت السماء فى ليلة بعد ليلة تتوهج بالنيران المتصاعدة من بيوت المستعمرين . وكنا فى كل يوم نستقبل أفواجاً جديدة من المهاجرين ومعهم زوجاتهم وأطفالهم ، فى طريقهم الى مدينة أجرا حيث توجد أقرب قوة رئيسية من الجيش الانجليزى

« وكان المستر وايت رجلا عنيداً . ظل مصمما على أن التهويل والمبالغة يجسمان الخطر أكثر مما ينبغى . وأن ذلك التمرد أشبه بنيران التبن يخبو فجأة كما اندلع فجأة . وأنه من غير اللائق أن نهرب من غير مبرر

« وفى ذات يوم كان مستر وايت جالساً فى شرفة بيته الخشبى يحتسى الويسكى ويدخن السيجار حين انقض عليه الثوار . وبطبيعة الحال ناصرته أنا وداوسن الذى كان يقيم بزوجته وأولاده ليؤدى الأعمال الكتابية والحسابات فى المزرعة . وكنت فى تلك اللحظة عائداً على صهوة الجواد ، عندما رأيت ألسنة النار مندلعة . فأسرعت قليلا لألتقى فى الطريق بمجموعة من الكلاب الجائعة تنهش لحماً ممزقاً كان يوماً ما زوجة داوسن . وعلى مسافة قليلة وجدت داوسن نفسه ملقى على وجهه مقتولا وفى يده مسدسه وقد فرغ منه الرصاص . وتناثر من حوله أربعة قتلى من الثوار

« وجذبت عنان جوادى ووقفت برهة أفكر أية وجهة أسلك . وكان الدخان يتصاعد كثيفاً من بيت وايت وألسنة النيران ترعى فى سقفه . فأدركت أننى لا أستطيع لمخدومى نفعاً . وكل ما أجنيه من التدخل أن تذهب حياتى هدراً . واستطعت أن أتبين من مكانى المرتفع فوق الجواد مئات ومئات من الشياطين السمر ، فى ملابس حمراء ، يرقصون رقصة النصر الوحشية حول البيت المحترق وهم يرسلون صراخاً تقشعر له الأبدان

« وفجأة تنبه لوجودى نفر منهم وأشاروا نحوى بأيديهم . وإذا بضع رصاصات تئز من فوق رأسى . فكان فى ذلك فصل الخطاب بالنسبة لى ، لأن الانسان لا يعرف التردد حينما تكون حياته فى كفة الميزان

« لويت عنان جوادى يا سيدى وانطلقت كأن الشيطان فى أعقابى اخترق الحقول والسهول لا ألوى على شىء ولا أفكر فى شىء ، إلى أن ألفيت نفسى فى ساعة متأخرة من الليل أمام أسوار أجرا »

وتوقف جوناثان سمول قليلا ليسترد أنفاسه ، لأن ذكرى تلك المخاطر كان قد أثار فيه من الانفعالات كما لو أنها تحدث له لساعتها . ومد يده الى الكأس التى بجواره ورفعها بكلتا يديه ليبلل شفتيه ويرطب لسانه الذى أصابه الجفاف



الفصل الثانى والعشرون

بحد الخنجر

وبعد أن استرد سمول بعض هدوئه استطرد :

« واتضح مع ذلك ان أجرا ليست مكانا مأمونا أكثر من البطاح الأخرى لأن الإقليم كله كان كعش النحل الهائج . وحيثما استطاع نفر من الانجليز أن يتجمعوا ، لم يستطيعوا أن يتحكموا إلا فى دائرة تحددها لهم بنادقهم . أما فيما عدا ذلك فهم يهيمون على وجوههم ، وما ظنك بمعركة يقف فيها بضع مئات أمام الملايين ؟ وأقسى ما فى الأمر ان الجيوش التى كانت تحاربنا مكونة من الوطنيين الذين دربناهم وعلمناهم أساليب القتال الحديثة ، بل انهم كانوا يقاتلوننا ببنادقنا ورصاصنا ، وهم مرتدين ثياب جيشنا الحمراء !

« وفى قلعة أجرا كانت الفرقة الثالثة من بنادق البنغال ، وبعض فصائل من السيخ ، وفصيلتان من الخيالة وبطارية مدفعية . وقام القائد بتجنيد بعض المدنيين الانجليز من كتبة وتجار . وإلى هؤلاء انضممت أنا وساقى الخشبية . وخرجنا للقاء الثوار فى أوائل شهر يوليه ، فاستطعنا أن نردهم قليلا ، ريثما فرغ بارودنا ، ثم تقهقرنا الى المدينة

« وكانت الأخبار التى تأتينا كلها حالكة ، تتقاطر بنذر السوء من كل مكان . ولا عجب . فلو نظرت الى الخريطة لوجدت موقع أجرا فى قلب الإقليم المتمرد . بحيث تبعد النجدات عنا من الشرق ومن الجنوب بما لا يقل عن مائة ميل . وحيثما أدرنا أبصارنا لم تقع إلا على التعذيب والقتل والاغتصاب

« ومدينة أجرا متسعة الأرجاء ، تموج بالهندوس المتعصبين عباد الأبقار .

ولم نكن نحن إلا حفنة من الرجال وسط ذلك الحشد الهائل . ولهذا عبر بنا قائدنا النهر وأقام بنا فى موقع منعزل حصين هو قلعة أجرا القديمة . ولست أدرى إن كان أحد منكم قد شاهد هذا المكان أو رآه . ولكنها على كل حال غريبة البنيان هائلة الحجم تستغرق مساحتها عدداً كبيراً من الأفدنة . ويلحق بالبناء القديم جناح حديث وسع كل الحامية والنساء والأطفال والمخازن ، وبقى جانب منه خاويا . وهذا الجناح على ضخامته ليس شيئا مذكوراً بالقياس الى البناء القديم الذى لا يجرؤ على دخوله أحد ، فهو ملك خالص للعقارب والأفاعى . تمرح فى أبهائه الرحيبة المقفرة ، وممراته الملتوية المظلمة . بحيث يضل من يدخل فيه عن طريق الخروج . ومن أراد أن يدخله مستكشفا فلا بد له من حمل المشاعل نهاراً

« ومياه النهر ترتطم فى جريانها بأسوار ذلك الجناح القديم من القلعة . فهو بهذا حصن طبيعى من تلك الجهة . أما الجوانب الأخرى فبها أبواب كثيرة يجب أن يقوم عليها حرس قوى . سواء فى الجناح القديم أو الجديد . ولما كان عددنا محدوداً جداً لا يكاد يكفى لخدمة المدافع والأبراج ، فقد استحال علينا أن نخصص مجموعة لكل باب على حدة من تلك الأبواب التى لا حصر لها

« فرتبنا هيئة مركزية للحراسة فى وسط القلعة . على أن يقف على كل بوابة رجل أبيض واثنان أو ثلاثة من الأهلين للانذار بالخطر . ووقع على الاختيار لأقوم بالحراسة جانبا من الليل عند باب صغير منعزل فى الجهة الغربية الجنوبية من البناء . وكان معى جنديان من السيخ يأتمران بأمرى . وكانت التعليمات تقضى عند شعورى بأى خطر أن أطلق بندقيتى ، كى يخف إلى الحرس الرئيسى . وكان هذا الحرس على بعد مائتى خطوة . ويفصله عنى تيه كامل من الممرات والدهاليز . مما يحمل على الشك فى وصولهم فى الوقت المناسب إن حدث هجوم

« على كل حال كنت فخوراً بقيادتى الصغيرة هذه ، نظراً لأننى مجند على وجه الضرورة ، وأنا فضلا عن هذا أعرج ، وقضيت الليلتين الأولى والثانية

ساهراً مع البنجابيين . وكانا طويلى القامة نحيفى السحنة ، اسمهما محمد سنغ وعبد الله خان . وكلاهما من المقاتلين المحنكين الذين شهدوا المعارك من قبل . ويتقنان الكلام باللغة الانجليزية . بيد اننى لم أستطع أن أستدرجهما للحديث كثيراً . إذ كانا يفضلان الوقوف بمعزل عنى والرطانة بلغتهما الخاصة طول الليل

« أما أنا فكنت أقف خارج البوابة أتطلع الى النهر العريض السريع وإلى أنوار المدينة التى تنعكس على صفته الأخرى وأصغى الى ما يحمله إلىّ هواء الليل من قرع الطبول ، وضرب الدفوف ، وعواء الثائرين الذين أسكرهم الأفيون ، وكان الضابط يأتى مرة كل ساعتين ليمر بجميع المواقع ويتأكد من التمام

« وكانت ليلة حراستى الثالثة ليلة ممطرة حالكة سيئة الجو . فكان الوقوف بالبوابة عملا مرهقاً . وحاولت أن أستدرج الجنديين للحديث معى جملة مرات ، ولكن من غير جدوى . وفى الثانية صباحاً مر الضابط حاملا شراباً منعشاً بدد عنى شيئاً من التاعب والسأم . وبعد انصرافه أخرجت بيبتى لأتسلى بتدخينها ، ووضعت بندقيتى بجوارى كى أشعل ثقاباً . وفى لمح البصر هجم علىّ الجنديان ، واختطف أحدهما البندقية وسددها الى دماغى . أما الآخر فشهر خنجراً على رقبتى وأقسم أن يغرسه فى صدرى إن أتيت بحركة

« وأول خاطر مر بذهنى ان هذين الجنديين من عملاء الأعداء . وان هذه مقدمة لهجوم عام . ومعنى استيلاء الأعداء على هذه البوابة خلسة أن تسقط القلعة كلها . وما سيلقاه النساء والأطفال على أيديهم شىء مروع تهون فى سبيله الحياة . وأقسم لكم أيها السادة انى عندئذ فتحت فمى لأصرخ ، فصرخة واحدة أموت بعدها قد تنقذ حياة هؤلاء جميعاً

« ويبدو ان صاحب الخنجر قرأ أفكارى . لأنه همس على الفور :

— لا تصرخ . القلعة فى أمان . لسنا من الأعداء . ولا يوجد ثوار على هذه الضفة

« ولمست فى صوته رنة الصدق . ومن جهة أخرى أدركت من نظرته اننى إن رفعت صوتى مت لتوى . فلذت بالصمت الى أن أرى ماذا يريدان منى .

وتولى الكلام أطولهما قامة وأهولهما منظراً ، وهو المسمى عبد الله خان :

— اسمع ياصاحب . إما أن تكون معنا منذ الآن ، وإما أن نسكتك الى الأبد . فالمسألة أكبر وأخطر من أن تكون موضوع تردد من جانبنا . واعلم انك يجب أن تكون معنا قلباً وقالباً وأن تقسم بذلك على صليب المسيحيين وإلا سيكون جسدك فى هذه الليلة ملقى فى الخندق . وسنعبر بعد ذلك النهر وننضم الى اخواننا فى جيش الثوار . ولا وسط بين هذين الحلين . فاختر لنفسك ما تشاء لها من حياة أو موت . ولا نستطيع أن نمنحك للتفكير والتقدير أكثر من ثلاث دقائق . لأن الوقت يمر بسرعة ولا بد من الانتهاء من كل شىء قبل نوبة التفتيش التالية

— وكيف أستطيع أن أقرر أو أختار وأنتما لم تذكرا لى شيئاً عما تريدانه منى ؟ ومع هذا فانى أصارحكما منذ الآن ، انه إذا كان الأمر يمس أمان القلعة من قريب أو بعيد فلن أوافق عليه ، ومن الخير لكما أن تغمدا هذا الخنجر فى صدرى وأنا ممنون

— ليس فى الأمر شىء ضد أمان القلعة أو سلامتها . وكل ما نريده منك هو أن تفعل شيئا من قبيل ما يفعله مواطنوك جميعا كلما جاؤوا الى بلادنا . نريد منك بالاختصار أن تصبح غنيا . فان وافقت على أن تكون واحداً منا فى هذه الليلة ، فسنقسم لك على هذا الخنجر ثلاثا أن نعطيك نصيبك العادل من الغنيمة ، وهو ربع الكنز

— ولكن ما هو هذا الكنز ؟ إنى مستعد جداً أن أكون غنيا الى أى حد تشاؤون ، وليس عليكم إلا أن تدلونى على ما أصنعه فى ذلك السبيل

— إذن يجب أن تقسم أولا

— هاتوا القسم ...

— اقسم بعظام أبيك ، وبشرف أمك ، وبصليب مسيحك ، ألا ترفع يداً ولا تنبس بكلمة ضدنا ، لا الآن ولا فيما بعد

— أقسم بهذا كله بشرط ألا يكون فى ذلك تهديد لسلامة القلعة

— وأنا وصديقى نقسم أن تحظى بربع الكنز الذى سوف يقسم بيننا نحن الاربعة

— نحن الأربعة ؟ نحن ثلاثة فقط

— هناك دوست أكبر . ونستطيع أن نخبرك بتفاصيل القصة ونحن فى انتظار وصولهما . وعليك أن تقف عند البوابة يا محمد سنغ وتنذرنا بقدومهما . إن المسألة ياصاحب خطيرة جداً . ولولا اننا نثق بيمين الفرنجة لما بحت لك بالسر . أما وقد أقسمت فقد صرت واحداً منا وأصبح من حقك أن تعرف جميع الخفايا



الفصل الثالث والعشرون

المهراجا

« وعندئذ أغمد عبد الله خان خنجره الرهيب وأنشأ يحدثنى بالسر الذى أطلق عليه بعد ذلك اسم سر الأربعة . وهذا هو السبب فى توقيعى على كل شىء بعلامة ال « ٤ »

— هناك مهراجاً فى الولايات الشمالية ثروته من الجواهر والأموال كبيرة جداً وإن كانت أراضيه قليلة المساحة . فقد ورث عن والده الكثير . وادخر الكثير بفضل شحه وبخله على نفسه وذويه . فلما قامت الثورة هداه مكره الخبيث أن يأكل على المائدتين ويكون على صلات خفية بالفريقين المتحاربين . وأخيراً بدا له أن دولة الفرنجة آذنت بالزوال . فوضع خطة يضمن بها أن نصف أمواله على الأقل يجب أن يبقى له أياً كان الفريق الفائز . فاستبقى أمواله من الذهب والفضة فى أقبية قصره هناك . أما الأحجار الكريمة واللآلىء النادرة فوضعها فى صندوق ضخم من الحديد وعهد بها الى خادم موثوق به تنكر فى زى التجار . وهو الآن فى طريقه الى قلعة أجرا حيث يقيم إلى أن تنتهى الحرب ويسود السلام . فاذا انتصر الثوار فاز بما له من الذهب والفضة . وإذا انتصر الفرنجة بقيت له جواهره . وبعد أن قام بذلك التقسيم الماكر انضم جهاراً للثوار نظراً لقوتهم على حدود إمارته . فهو رجل خائن ، وأمواله حل لأولئك الذين أخلصوا للخبز والملح . وهذا التاجر المزعوم موجود الآن فى مدينة أجرا على الضفة الأخرى . ومعه دليل سيأتى به الى القلعة هو أخى فى الرضاع دوست أكبر . وقد وعد أن يأتى به هذه الليلة الى هذه البوابة . وبعد قليل سيكونان هنا حيث يجدان محمد سنغ ويجدانى فى الانتظار . ولما كان هذا

المكان منعزلا فلن يعرف أحد أن التاجر أحمد قد اختفى من عداد الأحياء . وبعد هذا نقتسم كنز المهراجا بيننا نحن الأربعة . فماذا تقول فى ذلك ياصاحب ؟

« وقد نشأت أيها السادة فى الريف الانجليزى حيث حياة الانسان مقدسة . ولكن الأمر يختلف جداً حين يكون الانجليزى منا فى الشرق الأقصى ، والأرض تسيل بالدماء والسماء معقودة بدخان الحرائق ليل نهار . فسواء عاش التاجر أحمد أم مات مسألة لا وزن لها عندى . وتخيلت ما يمكن أن أصنعه بكل هذه الثروة حين أعود سالماً إلى مسقط رأسى . وكيف أن أقربائى الذين تبرأوا منى سينظرون الى بالدهشة والاعجاب . وكان هذا عاملا حاسماً فى الموقف . ويبدو أن عبد الله خان لمح ترددى أو ما ظنه تردداً ، فأدلى بحجة أخرى لاقناعى

— تذكر يا صاحب أنه إن تركنا هذا التاجر أحمد يدخل بالكنز لدى القائد ، فسيخترع هذا القائد أى حجة ويأمر بشنقه أو رميه بالرصاص . ثم تصادر حكومتكم جواهره كعادتها فى مثل هذه المناسبات . وبذلك تضيع الثروة الطائلة على الجميع ويموت الرجل على كل حال ولكن من غير أن يستفيد بموته أحد . وما دمنا نحن سنتكفل به ، فمن الخير أن نستولى نحن على المجوهرات من أن تستولى عليها حكومة ليست بحاجة إليها . ونصيب كل واحد منا سيكون كافياً لجعله من كبار الأغنياء والرؤساء مدى الحياة . ولا يمكن أن يعلم أحد شيئاً عما حدث . لأننا هنا بمعزل عن بقية الحامية . والآن يجب عليك يا صاحب أن تقرر فوراً هل أنت منا أو علينا »

— بل معكم قلباً وقالباً

— اتفقنا . وهاك بندقيتك . لكى تعلم أننا نثق بك . وأن عهودنا كعهودكم شىء مقدس . وليس علينا الآن سوى انتظار القادمين

— وهل أخوك دوست أكبر يعرف ما سنفعله ؟

— انه هو صاحب الفكرة وواضع الخطة . والآن هيا نخرج لنشترك مع محمد سنغ فى المراقبة . ولكى نخبره بالاتفاق

« وكان المطر يتساقط بغزارة . والسحب الثقيلة تغطى صفحة السماء بحيث تتعذر الرؤية أكثر من بضع خطوات . وكان هناك خندق عميق أمام بوابتنا .

ولكن هذا الخندق كان جافاً فى بعض مواضعه . بحيث يمكن اجتيازه . وبدا لى غريباً أن نقف هناك أنا وهذين البنجابيين فى انتظار رجل مسالم يسير الى حتفه على قدميه

« وفجأة لمحت ضوء فانوس فى الناحية الأخرى من الخندق ، ثم اختفى الضوء وراء الأكوام المتناثرة من التراب . ولم يلبث أن ظهر ثانية وهو يتجه نحونا ببطء . ووجدت نفسى أصيح بفرح شديد :

— ها هما أخيراً

« فهمس عبد الله خان فى أذنى قائلا :

— عليك يا صاحب أن تصيح به كالعادة : قف ، من أنت ! وعليك ألا تدع الخوف يتسرب الى نفسه . ثم ابعث بنا معه الى الداخل لنوصله الى القائد . وتبقى أنت هنا للحراسة الى أن نتم نحن العملية بطريقتنا

« وجعل الضوء يهتز قدماً تارة ومتراجعاً تارة أخرى ، ثم رأيت الشبحين يخوضان الخندق ويتسلقان جانبه متجهين نحو البوابة . وعندئذ صحت بصوت أجش :

— من هناك ؟

« فأجابنى صوت علمت فيما بعد أنه صوت دوست أكبر :

— أصدقاء !

« فأخرجت الفانوس وألقيت عليهما الضوء . فرأيت أولا رجلا من السيخ له لحية سوداء تصل الى بطنه . ولعله أطول رجل رأيته فى حياتى . أما الرجل الآخر فكان قصيراً بديناً يرتدى عمامة صفراء كبيرة وفى يده شال ملفوف فيه شىء . وبدا عليه الارتعاد من الخوف . فهو يتلفت يميناً ويساراً كما يتلفت الفأر حين يجازف بالخروج من جحره . فأخذتنى الشفقة بهذا المسكين ولم يطاوعنى قلبى على تمثله مقتولا غيلة بيد ثلاثة من العمالقة . بيد أن فكرة الثراء والكنز ردت الى قلبى صلابته وجموده . ويؤسفنى أن أقول إنه ما أن رأى وجهى الأبيض حتى أطلق صيحة فرح وأسرع نحوى كالمستجير وهو يغمغم :

— سألتك الحماية يا صاحب ! حمايتك للتاجر المسكين أحمد . فقد عبرت راجابوتانا لألتمس الأمان فى قلعة أجرا . كم ضربونى وسلبونى لأننى كنت صديق الفرنجة . ليلة مباركة هى هذه الليلة التى وصلت فيها إلى الأمان بين يديك أنا وممتلكاتى الحقيرة

— وما هذا الذى فى تلك الصرة ؟

— صندوق من الحديد ياسيدى فيه شىء من التذكارات العائلية التى ليست لها قيمة عند أحد سواى ، ولكنى ما كنت لأفرط فيها . ومع هذا فلست معدماً ، ويمكننى أن أجزل لك العطاء يا صاحب ، ولقائدك أيضاً إذا كفل لى الأمان

« ولم آمن جانب قلبى فى الاستمرار فى ذلك الحديث مع الرجل . لأننى كلما نظرت الى وجهه السمين المذعور ، صعب على أن أتصوره مقتولا بغير ذنب . فرأيت من الخير أن أختصر هذا الحديث فقلت للجنديين :

— خذاه الى القائد

« فأخذه أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره . أما العملاق دوست اكبر فمشى فى الخلف . وابتلع الموكب الصغير ظلام القلعة فى الداخل . ووقفت أنا عند البوابة ومعى الفانوس

« وأصغيت فى سكون الليل الى خطوتهم المنتظمة فى الدهاليز الخالية . وفجأة توقفت الخطوات ، وسمعت أصواتاً ، ومناوشة خافتة وضربات مكتومة . وبعد لحظة سمعت أقداماً تندفع بسرعة فى اتجاهى ، وصوت لهاث رجل يجرى فى المقدمة . فحولت فانوسى الى الداخل . فاذا بالرجل البدين يسابق الريح ، والدم يسيل على وجهه ، وفى أعقابه دوست أكبر كاسراً كالنمر وفى يده خنجر يخطف الأبصار

« ولم أر فى حياتى رجلا يجرى بسرعة هذا التاجر البدين . لقد انقلب غزالا أمام خطر الموت . ورأيت المسافة بينه وبين السيخى العملاق تزداد . بحيث لو تجاوزنى الى الهواء الطلق لنجا بحياته

« ورق له قلبى . بيد أن خيال المال وتغير الحال من الفقر الى الثراء والجاه قضت على هذه الشفقة . فمددت بندقيتى بين رجليه حينما حاذانى فسقط على وجهه وتدحرج كأرنب أصيب بطلقة صياد ماهر

« وقبل أن يتمكن من الوقوف على قدميه كان السيخى قد جثم فوقه وطعنه بخنجره مرتين الى المقبض ، فلم يخرج من فمه صوت ولم تتحرك فيه جارحة ، واستقر حيث سقط

« وها أنتم ترون أيها السادة أنى أبر بوعدى وأعترف لكم بكل التفاصيل كما وقعت ، حتى ما كان منها ضدى على خط مستقيم »

ومد يده يلتمس جرعة أخرى من الشراب ويريح لسانه ويسترد أنفاسه



الفصل الرابع والعشرون

العهد

« لن أحاول أن ألتمس لنفسى المعاذير . بل سأمضى فى قصتى من غير تعليق. لقد حملناه أنا ودوست أكبر وعبد الله خان . وتركنا محمد سنغ يحرس البوابة . ودخلنا بالجثة الى المكان الذى كان السيخيون الثلاثة قد أعدوه من قبل فى جدار سميك فى أحد الأبهاء البعيدة الخالية ووضعنا فوقه الحجارة والتراب فى كومة تشبه سائر الكومات فى القلعة المتداعية ثم عدنا الى الكنز فوجدناه حيث سقط منه عند أول هجوم . وهو هذا الصندوق بعينه الذى أمامكم الآن . وكان المفتاح معلقاً بخيط من الحرير الى اليد المزخرفة التى فى الغطاء

« وفتحنا الصندوق فسقط ضوء الفانوس على مجموعة من الجواهر تشبه ما سمعنا عنه فى أقاصيص ألف ليلة ، حتى لقد غشيت أبصارنا . وبعد أن شبعت عيوننا من النظر أفرغنا كل ما فى الصندوق وكتبنا به قائمة مفصلة . فإذا هناك ١٤٣ ماسة كبيرة من أعلى درجة . منها واحدة اسمها « كبير المغول » ويقال إنها ثانى ماسة فى العالم من حيث الحجم . وهناك أيضاً ٩٧ زمردة كبيرة نفيسة جداً و ١٧٠ قطعة عقيق . و ١١٠ من حجر السفير . وأنواع أخرى لا حصر لها من التركواز وعين القط والبرليس وغير ذلك من الاحجار الكريمة التى لا تخطر ببال . فضلا عن أكثر من ثلاثمائه لؤلؤة كبيرة الحجم منها ١٢ على شكل مسبحة فى سلك من الذهب . وبهذه المناسبة أقول إن تلك المسبحة أخذت من الصندوق ولم أجدها مع الجواهر حين ألقيتها فى النهر

« وبعد أن فرغنا من احصاء الكنز أعدنا كل شىء الى الصندوق وحملناه الى البوابة ليراه محمد سنغ . وبعد ذلك جددنا العهد أن نقف متضامنين فى المحافظة على الكنز وصيانة سره

« ولم تكن هناك جدوى من اقتسامه فوراً . لأن وجود مثل هذه الجواهر النفيسة معنا حرى أن يثير الشبهات . ولم تكن فى الثكنات دواليب أو غرف منعزلة تسمح باخفاء مثل تلك النفائس . لهذا أقفلنا الصندوق ودفناه داخل أحد الجدران الداخلية بالقرب من المكان الذى دفنا فيه التاجر أحمد وقمت فى اليوم التالى برسم أربع خرائط ، واحدة لكل واحد منا ، ووضعت علامة الـ « ٤ » على كل منها . وتعاهدنا أن ينوب أى واحد منا عن الأربعة متضامنين كى لا ينفرد أحد بالغنيمة . ولم أحنث بهذا العهد مطلقاً

« وسرعان ما تغلبت القوات الحكومية على الثورة . واستبشرنا باستتباب الأمن ورحنا نحن الأربعة نعد الخطة لانتزاع الكنز من مكانه والتسلل به بعيداً حيث نقتسمه . وإذا بنا نفاجأ بالقبض علينا واتهامنا بقتل أحمد

« وظننا فى بادىء الأمر أن هناك خيانة . ثم اتضح أن المهراجا صاحب الجواهر كان قد أرسل جاسوساً يتعقب أحمد . بشرط ألا يدعه يشعر به وفى ليلة الحادث شاهده وهو يدخل من البوابة . وفى اليوم التالى جاء بالنهار والتجأ الى القلعة . ولكن لم يعثر على أثر لأحمد فى داخلها . فشك فى الأمر وتحدث بشكوكه الى أحد الضباط الذى رفع الأمر الى القائد . فأمر باجراء تفتيش دقيق انتهى بالعثور على الجثة . وهكذا ألقى القبض علينا فى الساعة التى حسبنا فيها أننا وصلنا الى تحقيق أملنا

« ووفينا نحن الأربعة بالعهد ، فلم يعترف أحدنا بمكان الجواهر أو بمجرد وجودها . ذلك أن المهراجا كان قد طرد باعتباره خائناً للحكومة فلم يهتم أحد بمسألة ممتلكاته . أما جريمة القتل فلها لون آخر . وقضت المحكمة على السيخ الثلاثة بالأشغال الشاقة المؤبدة . أما أنا باعتبارى القائد فحكم على بالاعدام . ثم خفف الحكم الى الأشغال الشاقة المؤبدة

« وهكذا وجدنا نحن الأربعة أنفسنا فى موقف غريب . فأقدامنا مكبلة بالأغلال ولا أمل فى إطلاق سراحنا . ومع هذا فنحن نتقاسم سراً يمكن أن يجعل كل واحد منا رب قصر منيف . وكان هذا فى حد ذاته كافياً كى يأكل الغيظ قلوبنا كلما تعين علينا أن نؤدى التحية لكل صعلوك من رجال السجن وأن نأكل الأرز المسلوق من غير لحم . حتى لقد أوشكت أن أجن لولا ما أتمتع به من عناد

« وبعد فترة من الزمن نقلت من سجن مدراس الى جزيرة بلير من مجموعة جزر الأندمان . وقل بين نزلاء هذا السجن الأخير أن يوجد رجل أبيض ، فانتهزت هذه الفرصة وأحسنت السلوك حتى قربنى الرؤساء وميزونى بكوخ يقع على قمة تل وأعفيت من معظم الأعمال الشاقة

« وكانت هذه المنطقة معرضة لهجمات الأهالى من الأقزام أكلة لحوم البشر الذين يطلقون الشظايا المسمومة على كل رجل أبيض كلما سنحت لهم الفرصة . لهذا كنا نأخذ حذرنا باستمرار

« وكان العمل الموكول الى هو مساعدة جراح السجن فى إعداد الأدوية فتعلمت منه الكثير من دقائق فنه بالتمرين . وجعلت أتربص الفرص للفرار ولكن هذه الجزائر تبعد مئات الأميال عن أقرب أرض . والبحر من حولها ساكن لاريح فيه فى معظم الأيام . فالهرب شاق جداً

« وكان الجراح هو الدكتور سوميرتون ، وكان يمتاز بالظرف والرقة وسرعة الخاطر . فكان الضباط الشبان يجتمعون عنده فى المساء للعب الورق وكانت الصيدلية التى أشتغل فيها بتحضير الأدوية ملاصقة لحجرة الجلوس وبينهما نافذة صغيرة . فكنت حين يشتد سأمى فى بعض الليالى أطفىء النور فى حجرة العقاقير وأقف فى تلك الكوة أصغى لأحاديثهم وأراقب اللعب . وكان هذا يلذ لى كثيراً لانى من هواة العاب الورق

« وكان على رأس تلك المجموعة الميجور شولتو والكابتن مورستان والملازم براون ، فضلا عن بعض الاداريين من المدنيين . ولفت نظرى بمرور

الزمن ظاهرة عجيبة هى أن العسكريين يخسرون دائماً ، وأن المدنيين يكسبون دائماً . ولم يكن هناك غش ولكن هذا هو ما كان يحدث . لأن هؤلاء المدنيين قضوا خدمتهم كلها فى جزائر الأندمان . فلم تكن لديهم مشغلة ليل نهار الا لعب الورق حتى حذقوه . وأصبح كل واحد منهم يعرف طريقة الآخر فى اللعب . وهكذا وقع العسكريون فريسة فى أيديهم

« وكان الميجور شولتو أكثر الجميع خسارة . فبعد أن فرغ ما فى جعبته من الذهب والفضة وأوراق النقد بدأ يحرر على نفسه الصكوك بمبالغ ضخمة وأصبح يقضى النهار بطوله يتجول ثائراً ، وأفرط فى احتساء الخمور

« وفى ذات ليلة كانت خسارته أكثر من المعتاد . وكنت جالساً فى كوخى المنعزل عندما رأيته هو والكابتن مورستان عائدين الى مقرهما . وكانا صديقين حميمين متلازمين . وكان الميجور ساخطاً كعادته على خسارته . وسمعته يقول :

— انتهى كل شىء يامورستان . سأعلن إفلاسى . لقد قضى علىّ

— هراء أيها الصديق ! لا يجب أن تيأس ...

« ولم أسمع بعد هذا شيئا لأنهما كانا قد ابتعدا . وبعد يومين رأيت ميجور شولتو يتمشى على الشاطىء ، فانتهزت الفرصة وتحدثت اليه :

— أحب أن أسألك النصح فى مسألة مهمة يا ميجور . من هو الشخص الذى ينبغى أن نسلمه كنزاً مخبوءاً فى مكان ما ؟ فأنا أعلم مكان كنز يقدر بنصف مليون ذهبا . ولما كنت لا أستطيع أن أستفيد منه شخصيا ، خطر لى أن خير ما أصنعه أن أقدمه للسلطات المختصة ، على أمل أن يخفف هذا من مدة عقوبتى

« فحدجنى الميجور شولتو بنظرة فاحصة ليتأكد من اننى جاد وقال :

— أتقول نصف مليون ياسمول ؟

— نعم ياسيدى على الأقل . من المجوهرات واللآلىء . مدفونة فى مكان أعرفه . والغريب فى الأمر ان صاحبها الأصلى محروم من حقوقه المدنية ، فهى ملك لأول شخص يضع يده عليها فعلا

— هذه مسألة تحتاج الى تفكير . فأخبرنى بجميع تفاصيلها

« فأخبرته القصة مع تغيير فى الأسماء والأمكنة لكى أمنعه من الوصول بمفرده الى الكنز . فلما انتهيت وقف مبهوتا . فأدركت ان هناك صراعا يدور فى أعماق نفسه . فتركته فى صمته الى أن قال :

— هذه مسألة مهمة جداً ياسمول . وينبغى ألا تخبر أى انسان بها . وسأفكر أنا ثم ألتقى بك فيما بعد

« وبعد ليلتين جاء الى كوخى عند منتصف الليل ومعه الكابتن مورستان يحملان فانوسا ثم طلب منى أن أعيد القصة على الكابتن مورستان ، فأعدتها كما رويتها له أولا . وبعد ذلك قال الميجور :

— لقد تشاورت فى الأمر مع صديقى وقر رأينا على ان الحكومة لاشأن لها بهذا الموضوع . لأنها مسألة شخصية . وما دمت تعرف مكان الكنز فهو ملكك بحكم القانون . ومن حقك أن تتصرف فيه كما تريد . ولهذا فنحن نسألك بكل وضوح وصراحة ما هو الثمن الذى تريده لسرك ؟

— هناك ثمن واحد لايطلب سواه من كان فى مثل ظروفى . وهو الحرية . أريد أن تساعدانى وتساعدا رفاقى الثلاثة فى الهرب . وبعد ذلك نعتبركما شركاء ونعطيكما الخمس تقتسمانه معا فيما بينكما

— الخمس فقط ؟ هذا ليس مغريا

— الخمس يزيد على مائة ألف جنيه

— ولكن كيف يمكن أن نعمل على إطلاق سراحكم ؟ أنت تعلم تماما انك تطلب منا المستحيل ياسمول ؟

— لا استحالة هناك . فقد فكرت فى الأمر بجميع تفاصيله ووجدت ان الحائل الوحيد دون فرارنا هو اننا لانملك قاربا مناسبا للرحلة فى هذا البحر ولا مؤونة تكفينا . وتوجد فى كلكتا أو مدراس يخوت تؤدى هذا الغرض جيداً . فلو تمكنتما من إحضار يخت لاستطعنا أن نستقله تحت جنح الليل . فاذا أنزلتمونا بعدها فوق أى بقعة من الشاطىء الهندى سنعتبر أنكما قمتما بكل نصيبكما من الاتفاقية

— لو كانت المسألة تتعلق بشخص واحد لا أربعة ...

— الجميع أو لا أحد . فقد أقسمنا نحن الأربعة على التضامن

— تعجبنى فيك مزية الاخلاص ولهذا سأفكر فى مشروعك . ولكنى يجب أن أرى الكنز أولا لأتأكد

— لا أخبرك بمكانه إلا بعد موافقة رفاقى الثلاثة . فاترك لى فرصة كى أستشيرهم



الفصل الخامس والعشرون

الخيانة

« وتم الاتفاق على الخطة فى مقابلة تالية حضرها رفاقى الثلاثة محمد سنغ وعبد الله خان ودوست أكبر ، وبعد مناقشات طويلة وصلنا الى قرار وهو تزويد كل من الضابطين بخريطة تبين مكان الكنز فى قلعة أجرا القديمة . وكان على الميجور شولتو أن يطلب أجازة ثم يذهب الى الهند ليتحقق من صدق روايتنا . فاذا وجد الصندوق تركه حيث هو وأرسل يختاً صغيراً عليه مؤونة كافية بحيث يصل فى ليلة معينة . ويعود الميجور بعدها الى عمله . وعندئذ يطلب الكابتن مورستان أجازة ليلتقى بنا فى أجرا . وهناك نقتسم الكنز بصفة نهائية ويتسلم الكابتن مورستان نصيبه ونصيب الميجور . وأقسمنا على هذا الاتفاق بأغلظ الايمان التي يمكن أن تخطر بالعقل

« وقضيت تلك الليلة ساهراً مكباً على الورق والحبر . وفى الصباح كانت الخريطتان معدتين وموقعتين بعلامة الأربعة . وهم عبد الله خان ودوست أكبر ومحمد سنغ وأنا

« وقام الميجور شولتو بأجازته الى الهند . ولبثنا ننتظر عبثا وصوله أو وصول اليخت الموعود . وأخيراً أطلعنى الكابتن مورستان على اسم الميجور فى بعض الصحف التى تنشر قوائم المسافرين على البواخر الى انجلترا . وفى نفس الصحيفة خبر وفاة عم له ترك له ثروة كبيرة فاستقال من الجيش الهندى ليتفرغ لإدارة أملاكه

« وبعد برهة وجيزة قام مورستان بالأجازة وذهب الى قلعة أجرا حيث

تأكد بنفسه أن الكنز قد اختفى . سرقه النذل الذى أصبح غنياً بالوراثة من غير حاجة الى سرقة ، ومن غير أن يكلف نفسه الوفاء بأى شرط من الشروط التي تعاهدنا عليها

« ومنذ ذلك اليوم وأنا لا أعيش إلا للانتقام الذى استولت فكرته على نفسى . فلم أعد أعبأ بالقانون ولا بالسجن ولا بالمشنقة . وإنما كل همى أن أتمكن من الفرار كى أقتفى أثر شولتو وأضع يدى على رقبته فلا أتركها إلا وهو جثة هامدة . لقد أصبح كنز أجرا فى حد ذاته شيئاً تافهاً بجانب رغبتى فى الانتقام من شولتو

« وكنت كما ذكرت لكم قد تعلمت شيئاً من الفن الطبى بحكم عملى فى السجن وفى ذات يوم والدكتور سومرتون ملازم الفراش من الحمى ، قبض جماعة من المساجين على قزم من الأهالى المتوحشين فى الغابة . وكان مريضاً جداً فانفرد بنفسه على عادة عشيرته ليموت حتى لا يأكلوا لحمه فتوليت أمره بالرغم من بشاعة خلقته . وبعد شهرين كان قد استرد صحته واستطاع أن يمشى على قدميه . وكان هذا كافياً كى يتعلق بى فأمسى لا يكاد يفارقنى أو يبرح كوخى وتعلمت منه طرفاً من لغته القومية ، فزاد ذلك من تعلقه بى

« واتضح أن تونجا ملاح بارع شأن سكان الجزر المتوحشين . كما اتضح أنه يملك قارباً كبيراً من قوارب تلك الجهات. وعلى ضوء تلك الظروف رأيت فرصتى فى الهرب سانحة ففاتحته فى الأمر . وكان عليه أن يأتى بزورقه فى ليلة معينة الى مرفأ قديم مهجور لا يحرسه أحد ، ومن هناك يأخذنى . وأمرته أن يستعد ببضع قرب من الماء وكمية من جوز الهند والبطاطا وغير ذلك من ثمار الاقليم

« وكان تونجا مثالا للاخلاص والوفاء . فنفذ ما طلبته منه بحذافيره وتوجهت فى الساعة المعينة الى المكان المعلوم وإذا بى أجد هناك حارساً وطنياً كان يكرهنى جداً ولا يفلت فرصة لأهانتى . فرأيت الفرصة سانحة كى أنتقم منه لأن القدر وضعه فى طريقى فى تلك اللحظة . وكان ظهره الى جهتى

وبندقيته على كتفه . وتلفت حولى أبحث عن حجر أهشم به رأسه فلم أجد شيئاً . وعندئذ خطرت لى فكرة غريبة . فجلست على الأرض فى الظلام وحللت سيور ساقى الخشبية . وفى ثلاث وثبات كنت فوق رأسه . وأسرع يرفع بندقيته . ولكنى كنت أسرع منه فضربته على يافوخه بكل قوتى فطار نصف جمجمته . وتستطيعون أن تروا أثر الضربة ظاهراً فى ساقى الخشبية

« ونهضت ممسكاً بساقى وجعلت أحجل حتى ركبت الزورق وهناك أعدت سلاحى القاتل الى موضعه من جسمى . وفى مدى ساعة كان تونجا يخوض بنا عرض البحر . وكان قد أتى فى الزورق بكل ممتلكاته ، وأهمها أسلحته القومية وأصنام آلهته . فاتخذت من حصير مصنوع من ألياف جوز الهند شراعاً وظللنا نمخر البحر عشرة أيام . وفى اليوم الحادى عشر التقطتنا سفينة بضائع متوجهة من سنغافورة الى جدة . وكانت تحمل مع البضائع نفراً من حجاج الملايو أحسنوا معاملتنا وأكرمونا

« وظلت صروف الأيام تتقاذفنا . وكلما حاولنا أن نصل الى لندن أبعدتنا عنها . ولكنى لم أكف عن التفكير فى شولتو بالنهار والحلم به فى الليل ، الى أن شاءت الظروف منذ نحو أربع سنوات أن نأتى الى انجلترا ، فشرعت فى الحال أبحث عن محل إقامة شولتو . ولم أجد فى ذلك صعوبة . ولكنى أردت أن أتحقق هل الكنز فى حوزته أم لا

« واستطعت أن أتخذ لى جاسوساً من خدمه . ولكنى لن أشى باسمه . وهو الذى أنبأنى أن الجواهر ما زالت تحت يده . وحاولت أن أصل الى عدوى بيد أنه كان يقيم حول نفسه حراسة شديدة من الصارعين المحترفين

« وذات يوم أنبأنى جاسوس بأنه على فراش الموت . فأسرعت الى الحديقة من السور الخلفى ، وأنا أكاد أجن لافلاته ووفاته من غير يدى. فلما نظرت من النافذة رأيته على فراشه وولداه عن جانبيه . وكنت حرياً أن أهجم على الثلاثة فأقتلهم إن اقتضى الأمر ، لولا أننى شاهدت فكه يسقط ، فأدركت أنه مات وانقضى الأمر



« وسجلت حقدى عليه بكتابة علامة الـ « ٤ » على ورقة وضعتها فوق صدره بدبوس

« وتسللت فى تلك الليلة بالذات الى حجرته ، وفتشت فى جميع أوراقه عسى أن أعثر على مذكرة تهدينى الى المكان الذى أخفى فيه جواهرنا . ولكنى لم أعثر على شىء . وفى ثورة غضبى سجلت حقدى عليه بكتابة علامة الـ « ٤ » على ورقة وضعتها فوق صدره بدبوس ، كى أتعزى على الأقل بأنه لن ينزل القبر من غير تذكار يسجل حقدنا ولعنتنا

« وجعلت أتكسب بعرض ألعاب تونجا فى الموالد والأسواق حيث يأكل أمام الناس اللحم النىء ويرقص رقصة الحرب. فكفلت لنا هذه الألاعيب قوتنا وظللت على اتصال بيونديتشيرى لودج . وانقضت سنوات وأنا لا أسمع سوى أنهم ينقبون فى كل مكان عن الكنز من غير نتيجة

« وأخيراً حلت اللحظة التي كنا ننتظرها طويلا . فقد عثر برثولوميو شولتو على الكنز فى صندرة سرية فوق معمله الكيماوى . فذهبت على الفور لألقى نظرة . وسرعان ماتبين لى ان ساق الخشبية لايمكن أن تسمح لى بتسلق ذلك العلو الشاهق

« وعلمت من مصدرى الخاص بوجود باب سرى فى سقف الصندرة كما عرفت الساعة التى يتناول فيها برثولوميو شولتو عشاءه بانتظام . فبدا لى ان المهمة سهلة إن استعنت بتونجا . فأتيت به معى وربطت حبلا طويلا حول خاصرته . ولما كان تونجا يحسن التسلق كالقطط . فسرعان ما كان فوق السقف. ثم دخل من الباب المسحور

« وشاء سوء الطالع أن يكون برثولوميو شولتو فى معمله ولم ينزل تلك الليلة ليتعشى على خلاف عادته . وظن تونجا انه أدى لى خدمة جزيلة بقتله بشظيته المسمومة . لأنى وجدته يرقص مزهواً كالطاووس حول فريسته حين دلى لى الحبل وتسلقت الى النافذة العليا . وكانت دهشته كبيرة حين هجمت عليه لأضربه بطرف الحبل وأنا ألعنه

«وأخذت صندوق الكنز فدليته بالحبل . ثم انزلقت نازلا بعد أن تركت علامة الأربعة على ورقة فوق المائدة دلالة على ان الجواهر عادت أخيراً الى أحق الناس بها

« وجذب تونجا الحبل بعد ذلك ثم أغلق النافذة وخرج من الطريق الذى جاء منه . ولكنه أسقط وهو يتراجع جعبة قذائفه المسمومة

«وكنت قبل ذلك قد سمعت أحد البحارة يشيد بالسرعة الفائقة التى يصل اليها اللنش أورورا الذى يملكه مردخاى سمث . فخطر لى أن أتخذ هذا اللنش وسيلة مأمونة للفرار . فاتصلت بمردخاى سمث واتفقت معه على أن أعطيه مبلغاً كبيراً إذا تمكن من توصيلنا الى باخرتنا

«وكان بطبيعة الحال يدرك ان وراءنا سراً . ولكنه لم يكن يدرى ماهو . وإنى أقرر ذلك قياماً بواجب الأمانة حتى لايضار الرجل من غير ذنب . ولعلنى بهذا أوضحت لكم مدى براءتى من دم برثولوميو شولتو . كما أوضحت لكم أى خيانة غادرة أنزلها بى والده الميجور »

وساد الصمت لحظة بعد أن ختم جوناثان سمول قصة حياته ، وتجرع بقية كأسه . ثم سأله هولمز :

ـ كل هذا مطابق لما استنتجته من قبل . ولكنى كنت أحسب أن تونجا فقد جميع قذائفه . فمن أين أتى بالقذيفة التى حاول أن يصيبنا بها ؟

ـ كانت هذه هى الأخيرة . وكانت موجودة بالفعل فى مزماره الجهنمى . هل هناك ياسيدى استفسار آخر ؟

ـ كلا وشكراً لك

وعندئذ قال أثلنى جونس :

ـ أظن أنه حان الوقت كى نأخذ أسيرنا وننصرف . وإنى شاكر لك جهودك التى أدين لها بالنتيجة التى وصلنا اليها . وأنت تعلم طبعاً اننا سنحتاج لشهادتك فى المحكمة

وأراد جوناثان سمول أن يتأخر الى أن يمر جونس قبله من الباب ، إلا ان جونس ضربه على كتفه وقال ضاحكا :

ـ بل تمر أنت قبلى . لأنى لا أحب أن أترك لك الفرصة كى تهشم دماغى

نساقك الحشبية كما فعلت بحارسك السابق

☐

جلسنا ندخن ساعة تلك الليلة ونحن صامتين . ثم قلت لهولمز :

— أخشى ياهولمز ان هذه آخر قضية أتعلم فيها على يديك منهاجك الفذ في تحقيق الجنايات

— ولماذا ؟

— لأن الآنسة مورستان شرفتنى بقبولى زوجاً لها عما قريب

فتأوه باشمئزاز وقال :

— كنت أخشى أن يقع شيء من هـذا القبيل . أنت تعرف صراحتى ياوطسن . ولا تؤاخذنى إذا قلت لك انى لا أستطيع أن أهنئك !

فتألمت وقلت له بامتعاض :

— هل لديك سبب خاص للاعتراض على اختيارى ؟

— كلا على الاطلاق . فرأيي أنها من أشد من رأيت من الشابات فتنة . وهى ذات ذكاء وفطنة بدليل احتفاظها بخريطة كنز أجرا ، من دون سائر أوراق أبيها . ولـكن الحب شيء عاطفى . وكل ماهو عاطفى فهو مناهض للعقل. وأنا رجل يضع العقل فوق كل اعتبار . ولهذا لن أتزوج أنا شخصياً حتى لا يؤثر زواجى على استقامة تفكيرى

فضحكت وقلت له :

— أراهنك ان عقلى سوف يخرج من هذه المحنة سليما . ولـكنى أراك يبدو عليك الاعياء ياهولمز

— إن رد الفعل بدأ ينتابنى . وأعتقد اننى سأظل خائر القوى مدة أسبوع كامل على الأقل

الحقيقة انك ترهق نفسك كثيراً فى عملك هـذا . والفضل فى ذلك النصر يرجع اليك وحدك

— ليس تماماً . لا تنس ان لجوناثان سمول شريكا من أهل البيت لم

يصرح باسمه ولـكنه لايمكن أن يكون سوى الساقى لال راو . وهذا الشخص قبض عليه جونس منذ البداية

— ولـكنه انفرد رسمياً وفى الصحف بأكاليل النصر التى زرعتها أنت . وهذا ظلم فادح . لأن المعركة كانت عنيفة وكل منا خرج منها بغنيمة . فهذا جونس قد خرج منها بحسن السمعة وربما بترقية . وأنا شخصيا خرجت بشيء لا يقدر بثمن وزوجة جميلة ذكية محبة . وأنت أيها المسكين ما الذى بقى لك من أسلاب المعركة ؟

فنهض وكشف عن ذراعه وتناول المحقن ثم قال :

— بقيت لى زجاجة الـكوكايين

